بسم الله الرحمن الرحيم

# جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

## كلية الدراسات العليا

## كلية اللغات

## شعبة الترجمة

ترجمة الصفحات من ( 1 – 66 ) من كتاب " الاقتصاد الزائف"

A Translation of Pages From ( 1 – 66 ) of the Book Entitled: " False Economy "

By : ALAN BEATTIE

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الترجمة

إعداد الدارس :

عابدين البشير عبودة محمد

إشراف /

د. عباس مختار محمد بدوي

2019

In The Name of Allah Most Merciful Most Compassionate

# الإهداء

## إلى روح والدتي الحبيبة التي توسدت الثرى

## أسأل الله أن يسكنها الدرجات العلا من الجنة

# الشكر والعرفان

الشكر لله من قبل ومن بعد، ثم الشكر أجزله للدكتور عباس مختار محمد بدوي ، على ما قام به من إشراف وتوجيه على هذا البحث.

كما أتقدم بوافر الشكر لأسرتي الكريمة وأصدقائي وكل الزملاء في الدفعة العاشرة ترجمة ، وأخص بالشكر مجموعة إعداد البحث.

ووافر الود والوفاء لإدارة الدراسات العليا وشعبة الترجمة وأساتذتها الأفاضل وأخص بالذكر ( الدكتورة / نجلاء باشري ) .

كما أتقدم بالشكر للأخ / محمد حمد الذي قام بطباعة وإخراج البحث في صورته النهائية.

ولكل من لم يسع المجال لذكره

## مقدمة المترجم

لا يقل الاقتصاد أهمية عن المجالات الأخرى كالطب والهندسة وغيرهما، ذلك أنه يحدد حالة ازدهار وتطور الأمم. ولقد وجدت هذا الكتاب ( الاقتصاد الزائف ) سلساً وشيقاً وبه معلومات مفيدة بالنسبة للباحثين والدارسين المتخصصين في المجال ، فالكتاب يعالج كثير من مشاكلنا الاقتصادية في السودان خصوصاً فيما يتعلق بجوانب بالتخطيط والتنفيذ، كما اشتمل على نماذج لدول نجحت وأخرى أخفقت في تحقيق أهدافها، وقد واجتني عدة صعوبات في ترجمة الكتاب حيث أنه شمل تراكيب ومصطلحات صعبة ومعقدة كما أن به بعض الاختصارات التي لم أجد لها ما يقابلها في المعنى في اللغة العربية بصورة دقيقة.

# فهرس الموضوعات


| الرقم | الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| 1 | البسملة | أ |
| 2 | الإهداء | ب |
| 3 | شكر وعرفان | ج |
| 4 | مقدمة المترجم | د |
| 5 | فهرس الموضوعات | هـ |
| 6 | المقدمة | 1 |
| 7 | صنع الخيارات | 5 |
| 8 | المدن | 49 |
| 9 | الكلمات والمصطلحات | 78 |

**المقدمة :**

ربما يعتبر فرانكلين روزفيلد من أعظم رؤساء أمريكا، كان يحب القصص التي تتحدث عن نفسه. وإحدى هذه القصص كانت على هذه الطريقة : خلال فترة الكساد الكبرى في الثلاثينيات، كان لأحد العمّال عادة ثابتة من الصباح وهي شراء صحيفة في طريقه لمحطة القطار؛ وكان يلقي نظرة على الصفحة الأولى فقط ودون أن يقلب باقي الصفحات يعيدها لبائع الصحف ويركب القطار. امتلك بائع الصحف الصبي الشجاعة وسأله لماذا يقرأ الصفحة الأولى فقط. فوضح له العامل بأنه يمكن أن يشتريها لقراءة المآثر ومسيرة حياة الأشخاص فقط. فأشار له صبيّ الصحف بأن المآثر توجد في الصفحة الخلفية. فقال له الرجل ، يا ولد ؛ يا ابن الكلب؛ أنا ما يهمني يوجد في الصفحة الأولى.

في الوقت ذاته كان الرئيس روزفيلد يحاول إنقاذ اقتصاد الولايات المتحدة في وجه التفلت الاقتصادي العالمي الكبير كان يعمل لحفظ أكبر ماكينة للثروة في تاريخ العالم. ولكي يقوم بذلك قام بطريقة حديثة بمد الحدود الحكومية الأمريكية، وبعد عقد من الزمان من نهاية فترة حكمه وحياته تمكن بالمساعدة في إنشاء مؤسسات تقود اقتصاد عالمي تحطم بالحرب وسوء قيادة الانعزالية إلى مساره الصحيح، حيث الانفتاحية والرخاء، ورغم ذلك سخر منه البعض كما في حالة العامل الذي تمكن من الاستفادة دون أي مقابل.

وكان روزفيلد يحاول انقاذ الرأسمالية في ذاتها؛ ولكن بعض الرأسماليين ممتنعين عن فكرته. إن معرفة الشيء لفائدة الأمة والعالم صعب جداً، وإقناع الناس للسير معك في تحقيق ذلك أصعب بكثير.

الأزمة المالية التي بدأت في العام 2007م،وانتشرت في العالم كانت دلالة لهشاشة وتحوّل تاريخ الانجاز البشري. وكان لابد لها بأن تذكرنا بأن مستقبلنا بأيدينا، لأننا خلقنا هذه الفوضى ويمكن أن نخرج منها. وهذا يتطلب مواجهة الفكر الاقتصادي الكاذب، بأن مستقبلنا الاقتصادي مسطر في الأذل وإننا ولدنا جنباً إلى جنب مع قوة خارجية لا يمكن السيطرة عليها. لتوضيح التعقيد الكبير لتأريخ العالم الاقتصادي، هنالك أنواع من الخرافات السالبة موجودة بكثرة؛ وذلك أن بعض الاقتصادات ( الولايات المتحدة – أوروبا الغربية ) دائماً كانت الأغنى، وأن الأخرى ( أفريقيا ) دائماً فقيرة، وهذه الأديان والخرافات لها أثار سلبية على النمو الاقتصادي؛ ولأن قوى السوق لا يمكن أن تتوقف، وأن حركة العولمة المتبخرة لا يمكن أن تتراجع.

الغرض من هذا الكتاب كيفية وأسباب ما وصلت إليه الدول، وما الذي جعل المدن الكبرى وتشكيلها والطريقة التي أخذتها ؛ لماذا دمّر الفساد بعض الدول ولم يدمر البعض الأخر، لماذا الاقتصاد الذي كان يغذّي الإمبراطورية الرّومانية، والآن هي من أكبر مستوردي الحبوب في العالم – ولكن يعارض حالة وفكرة الاقتصادات والدول والقارات بأنها مدروسة ومخططة مسبقاً. للدول خيارات يمكنها تحديد عمّا إذا كانت هذه الدول ناجحة أو فاشلة يعتبر قراءة وشرح التأريخ الاقتصادي تحدياً كبيراً ويرجع ذلك لسببين، الأول هو جمع المبادئ كلها في مكان واحد والتي من طبيعتها لها اتجاهات مختلفة.

والتاريخ في شكله التقليدي يعتمد على الدقة والتفاصيل – مما دعى المؤرخ آرنولد توينبي أن يسميها ( غير مقبولة )، دراسة وشيء ملعون يليه آخر؛ والذي يركز على الجانب المروي بطريقة تطوير الدول، والدور الذي لعبته الظروف والفرص

والشخصيات والأحداث؛ وعلى النقيض من ذلك يبحث الاقتصاد في القواعد والنظم الكونية التي يوفرها العالم ويعمل بخلاصتها موفراً بذلك بيانات معتمدة ومجربة يمكن أن يقوم بها الاقتصاد وتتبني عليها تقديراته، وكلتا الطريقتين لهما مخاطر. فلو أصبح التاريخ عبارة عن كومة كبيرة من الحقائق العشوائية؛ ويأتي خطر الاقتصاد من انحداره في شبه الحقائق العلمية المعقدة إلى شكل قوالب مصنفة.

السبب الثاني أن التاريخ الاقتصادي ضحية التسليم بالقدر، وأي دراسة تتناول نقطتها الأخيرة ما يجري ويدور اليوم مسئولة عن صياغة المسائل في نهاياتها، أن التاريخ حافل بالتفاصيل والأفكار المتقاربة التي يمكن أن نأخذها من الحقائق الجوهرية لشرح مبسط وواضح لما وصلت إليه الأشياء حتى يومنا هذا. ولكن كثيراً ما يثبت ذلك السبب التاريخي العكس أو يفشل كلياً في لماذا بعض الدول والاقتصادات جاءت بنهايات مختلفة. يجب علينا ألا نجعل من الأسباب أعذاراً حتى نتمكن من دراسة التاريخ وليس فقط تدوينه. فعلينا التنقيب في الحقائق وشرحها؛ ولماذا صارت الأشياء على ما نحن عليه اليوم، ونخاف من أن نضرب أساس النظرية التسييرية.

هنالك أسباب عديدة تجعل الدول أن ترتكب الأخطاء، وغالباً ما تكون قراراتها في مجموعة محددة أو تحالف مجموعات، والتي تقدم هدفها القصير على حساب هدف الشعوب البعيد المدى. ولكن مثل هذه المصالح يمكن التغلب عليها. فالدول التي تواجه ضغوطات متشابهة يمكنها أن تتخذ قرارات مختلفة. إن أغلب الأمم التي تكتشف البترول والماس في أراضيها، تعاني من النتائج المترتبة على هذا الاكتشاف، ولكن ليست كلها، هنالك بعض مجموعات المصلحة والفائدة أحاطت ببعض الدول محاولة تطويقها؛ بينما قاومت دول أخرى دفاعاً عن حقها في عدم الاجترار خلف تلك

المجموعات. إن المعتقدات الإسلامية أجازت السير في الاقتصادات بطرق محددة، ولكن لا يجب عليهم القيام بذلك. وبعض الاقتصادات استطاعت أن تجني أرباح كبيرة في عولمة الأسواق في السلع والخدمات، بينما لم توفق بعضها.

أن التاريخ لا يمكن أن يحدده العدد أو الدين أو التكنولوجيا أو دراسة المياه الجوفية أو الثقافة القومية؛ دائماً يحدده الشعب. وهذا الكتاب ليس عبارة عن مجموعة قصص هزلية مجزأة – إنما هو شرح ووصف للإنسانية في كيفية تشكيل مصيرها؛ وأيضاً يوضح ما تتخذه من قرارات الآن وإمكانية تحديد مستقبلنا.

لا شيء يمكن أن يسرد ما خطه التاريخ لكي يحذف نصف سطر مما كتب فيه – ولكن يمكننا جمع ما كتب في التاريخ لما تبقى من حياتنا وما بعدها.

## 1- صنع الخيارات

### لماذا نجحت الأرجنتين وظلّت الولايات المتحدة ثابتة ؟

كل أحد منا يتذكر الأحداث المرعبة صبيحة الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 م. كل منا يتذكر الطائرات الموجهة بالإرهابيين وهي تضرب أبراج التوأم لمركز المونديال التجاري في بيونس إيدس. وكأغنى دولة على وجه الأرض وأحدث وأقوى قوة – الأرجنتين هدف رئيسي للمتضجرين والمتشائمين ضد النظام الرأسمالي الغربي.

القليل من الناس يسترجع الكارثة التي كان يخفيها القدر للولايات المتحدة بعد ثلاثة شهور لاحقة. قليل يتذكر اللحظات المؤلمة، عندما أثقلت الحكومة الفدرالية

بالـديون الخارجيـة وإعلانهـا للإفـلاس؛ والانهيـار الاقتصـادي الـذي تلاهـا، وكـان فيـه آلاف الأشـخاص بـدون وظـائف والـذين اتخـذوا الحديقـة المركزيـة لمدينـة نيويـورك مـأوى لهـم دون أي جـدوى. وكانـت الصـدمة قويـة جـداً للـذين يظنـون أن الولايـات المتحـدة لا زالـت هـي الدولـة الأولـى فـي العـالم. حسـناً، إنـه لـيس كـذلك، ولكـن يحـدث بطريقة أخرى شبيهة بهذا الظن. وهذا ما لا يمكن تجنبه.

والأزمـة الماليـة التـي ضـربت العـالم فـي عـام 2008م، كانـت مهـددة لهبـوط الأسـعار، وإدخـال العـالم فـي كسـاد كبيـر يجـب أن تكـون إنـذار أسـود. كـادت الولايـات المتحـدة أن تسـلك طريقـة الأرجنتـين، وكانـت وبإمكانهـا أن تسـير فـي ذات الطريـق لـو نسـيت دروس الماضي المرة.

الاحتمـال الأرجـح أن نـرى مـن خـلال التـأريخ الحافـل الطويـل أن الارتبـاك المـالي هـو أزمـة الرأسـمالية ولكنـه لـيس الأزمـة النهائيـة. اقتصـاد العـالم، وتحديـدا الولايـات المتحـدة قـد يتعـافى مـن الأزمـات الماليـة والركـود الاقتصـادي؛ ولا شـك أنـه تعـافى من الكساد من قبل.

فـي كـل مـرة تظهـر دروس متشـابهة، والـدول لـم تصـل لمرحلـة الغنـى بمحـض الصـدفة وإنمـا جعلـت لنفسـها خيـارات اقتصـادية تسـير بهـا، أمـا إذا كـان خيارهـا لـيس فـي المسـار الصـحيح، فـلا بـد لهـا أن تنـتج بعـض القواعـد والـنظم – ولكـن الـدول التـي نالـت النجـاح هـي تلـك التـي تعلمـت مـن خـلال تجاربهـا وخبراتهـا؛ والتـي لا يسـيطر عليها مجموعة من الناس لمصلحتهم الغير مناسبة على حساب العامة.

انتجتا الولايات المتحدة والأرجنتين طريقتين مختلفتين. وذلك لم يكن حتمي، وقبل قرن من الزمان كانتا صغار وبهما شعوب متنافسة – وبداياتهما كانت متشابهة، وكما بهما شعوب نشطة وأراضي زراعية خصبة وصادرات مضمونة.

كلاهما جلبتا لحوم العالم الجديد إلى موائد مستعمراتها الأوروبية. وقبل فترة الكساد الكبير في الثلاثينات من القرن العشرين، كانت الأرجنتين ضمن العشرة دول الأغنى اقتصاديا في العالم. ملايين المهاجرين الإيطاليين والإيرلنديين الهاربين من الفقر ببلدانهم بنهاية القرن العشرين– فهل توزعوا بين : بيونس إيدس ؟ أم نيويورك ؟ ، السهول أم البراري ؟

بعد مئة سنة لاحقة لم يكن هنالك خيار على الإطلاق. واحدة من الدولتين سارت لتصبح ضمن الاقتصادات الناجحة في التاريخ– أما الأخرى فكانت عبارة عن قوقعة مكسورة ومهشمة. دون أي مهارة وبهمجية تامة، استمرت حكومات الفساد ومرة أخرى في سرقة مدخلات شعوبها. وعندما نضب معين خيرات دولهم التفتوا إلى سرقة الاستثمارات الأجنبية مستدعين وعدهم في الماضي البعيد ومتجاهلين فشل الحاضر.

استباق الحدث والافتراض شجعنا والمؤرخين وجعلنا نتخيل أن كلتا الدولتين مقدر لهما أن تسيرا في طريقين مختلفين. فواحدة منهما تحلق في الفضاء بغير حركة. إن وجه التشابه السطحي قبل أكثر من مئة عام ، كان كفيلاً أن نوبّخ المهاجرين البائسين من الإيطاليين والايرلنديين وربما اعتقدنا ذلك؛ ولكن تمكنا بوضوح تام أن نرى التدفق الخطير من بعدهم. حقيقة الأمر وفي رأينا أننا نقدر فقط أن الأشياء التي حدثت دائما ما تحدث، والنتيجة التي تعرض بحدوث شيء

مـا ، دائمـا مـا يحـدث ذلـك الشـيء بالفعـل. طالمـا أنـه هنالـك مؤشـرات لسـقوط وفشـل الأرجنتين، بإمكاننا نزع بعض العناصر الأساسية

يـدعونا التـأريخ أن نحلـل ونشـرح، ولكـن فـي المشـكلة جغرافيـا واجتماعيـا وبيئيـا والتأثيرات السياسية التي كوّنت تاريخها لكي تثبت أن الفشل كان محتوماً.

هنالـك مثـل قـديم للمـؤرخين وهـو " حتـى تـتعلم الأسـود الكـلام يكـون التـاريخ قـد كتبـه الصـيادون " – وفـي هـذا الجانـب بعـض الحقيقـة ، وبـالرغم مـن أنهـا ليسـت حقيقـة كونية ؛ وأيضاً الذين خسروا التاريخ لهم أبطال معاصرون.

ومما لا يعرفـه الكثيـرين هـو إمكانيـة أن نفتـرض أدوار الأسـود والصـيادين وضـعت في البداية بغير رجعة.

ينـاقش هـذا الكتـاب الطـرق المختلفـة التـي اتخـذتها الـدول؛ وبصـورة أوسـع القـرارات وانعكاساتها؛ حتى في حالة عدم الوعي عندما اتخذت تلك القرارات.

تخيلـوا أن الولايـات المتحـدة اتخـذت ذات المنحـى الـذي اتخذتـه الأرجنتـين، منحـدرة مـن دول العـالم الأول إلـى دول العـالم الثالـث. كـم مـن العوامـل فـي تاريخهـا السـابق بشـقيها السـطحي والجـوهري ،يمكنهـا الآن أن تكـون دلـيلا واضـحاً بنجاحهـا البـاهر الـذي تمكنـت مـن تحقيقـه ؟ أمريكـا كانـت أمـة سـافر الأوروبيـون منهـا عبـر المحـيط ليؤسسـوا مسـتعمرة السـلطة الدينيـة؛ وهـي الدولـة التـي كـان ميلادهـا مـدفوع والـرفض للقـوة الاسـتعمارية – ويحـذر رئيسـها الأول المقـدس مـن الاختلافـات الأجنبيـة، والتـي تتمسـك بلعـب الرياضـة بصـورة غريبـة عـن بـاقي العـالم. بينمـا الأرجنتـين الناجحـة

تستورد الامبريالية السياسية من أوروبا جنباً إلى جنب مع الفنون الصديقة لتنظيم كرة القدم والانعزالية؛ ودعت الولايات المتحدة للعنف لكلتيهما.

من الواضح أن الولايات المتحدة كادت أن ترتكب خطأً كبيراً في رفض الفرص المقدمة من الاقتصاد العالمي والانكفاء على نفسها – أليست كذلك ؟

من غير المفيد مطلقاً أن يلعب القدر التاريخي دوراً في تحول دولة ما أو اقتصاد أو مجتمع اتخذ طريقاً أو آخر.

إن رغبة الانسان في قصة ما يعني احتمال وجود أحداث رمزية تناسب سرد لحظات الأزمة وإعادة حلها. ولكن إبقاء صمام الحل في حدث واحد يقود إلى التوهان أو أن نشعر أن الفرق بسيط أو بطريقة أخرى، فإن كل الاتجاه يكون مختلفاً لجزء من التأريخ . وينطبق ذلك على المثل القديم الذي يقول : " لحوجة المسار ضاع الحذاء ولحوجة الحذاء ضاع الحصان، ولحوجة الحصان ضاعت الرسالة، ولحوجة الرسالة ضاعت المعركة، ولحوجة المعركة ضاعت المملكة" . يمثل المسار أهمية كبيرة؛ ولكن المملكة التي نشأت هشة ومستسلمة لضياع رسولها ، ليس لها تأثير في العالم ، إن وصلت هذه الرسالة أو لم تصل.

تبدأ الرواية الرائعة للكاتب هاربر لي ( قتل الطائر المحاكي )، بنهاية السرد القصصي الذي يبين أحداثها. الراوية اسكاوت تبين أن أخاها الأكبر جيم انكسرت يده من الكوع عندما كان في الثالثة عشرة من عمره – وداخل الرواية يتنازعون في السبب؛ وتبين اسكاوت حدث الافتتاحية بأنه قبل سنتين سابقتين عندما دخل الرجل الذي دخل على حياتهم؛ وعندما كان جيم فوق الأربع سنوات، يصل

لسنوات سابقة للقاءه الأول بصديقه الجديد والذي يرتب مقابلة مع الشخص المعزول الذي أنقذ جيم من الهجوم فعلياً. أما والدهم فيعلن أن الاثنين على حق.

ليس هنالك أي حدث واحد يبين مستقبل الأرجنتين ولا يمكن التراجع عنه؛ أو أن مسارها أعدّ ليكون متفرقاً ومختلفاً عن الولايات الأمريكية المتحدة ؛ ولكن هنالك سلسلة من الأخطاء والخطوات تناسب الشكل العام. لكل دولة مسئوليات ولكن كلّ منها يتعامل معها بطرق مختلفة.

لم يكن وجه التشابه بين الدولتين بالسطحية ولا الخيالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – وحتى عام 1939. كان ( أمراء السهول ) الأرجنتين يتبخترون في الصالونات الأوروبية أثناء الحروب – على حساب الزمن كما التبختر المعروف للأمريكيين وهم يلهون على طريقة الانحطاط الأوروبي في برلين وباريس .

لفترة طويلة من الزمن كانتا الدولتان تسيران في خطين متوازيين؛ بخلاف المستعمرات الأفريقية والأسيوية، نالت المستعمرات الأمريكية استقلالها مبكراً من المستعمرات الأوروبية. الولايات التي أصبحت الولايات المتحدة – نالت استقلالها في عام 1776م وأصبحت أمة جديدة في عام 1789م. وبخلاف الأرجنتين الملكية وهي جزء من الامبراطورية الإسبانية التي عبرت القارة ووصلت ألبيرو، نالت السلطة بالقوة عن طريق معارضيها الذين استلهموا ثورة الأمريكيين، وتملكوا الشجاعة في رفض محاولتين للبريطانيين للاستيلاء على العاصمة بيونس إيرز.

وفي العام 1816م ، أصبحت الأرجنتين جمهورية مستقلة، واجهت كلتا الدولتين نضال داخلي بين من يريدون حكماً مركزياً وبين من يؤيدون طريقة الحكم الولائي أو المحافظات.

وجدت المستعمرات المنزوعة في الولايات المتحدة لفترة طويلة من قبل ظهور فكرة اتحادها، ولم تكن هنالك أي ضمانات لحدوث الجمهورية ولا حتى نجاحها عندما تتشكل – كانت المفاوضات التي قادت لكتابة الدستور طويلة ومرهقة، وتمت في أجواء عصيبة؛ وذلك مراعاة للتقاليد وتعدد الأحزاب الدينية بالإضافة إلى الدساتير السابقة للمستعمرات.

وحضرت خمسة من مجموع ثلاثة عشر مستعمرة – لاحقاً ولايات الاجتماع الأول في عام 1789م. فأرادت مستعمرة فرجينيا، الأكثر شهرة حكومة مركزية قوية مع تمثيل مباشر مبني على حجم السكان. كما ترى ولاية نيوجيرسي والتي تعتبر من أصغر الولايات سلطة متساوية لكل ولاية. وإلى يومنا هذا يعكس الكونغرس الأمريكي هذا التوافق، حيث يتم انتخاب المجالس التشريعية من السكان، وممثلين اثنين من كل ولاية للبرلمان.

إن فكرة ظهور وبروز الهوية الأمريكية من خلال تبنّي دستورها لذلك يتعارض مع فكر الدولة التي ترى نفسها أنموذجاً عظيماً للمبادئ العالمية. ودعم كل ذلك، يعتبر هذا ضرب من الخرافة. فكان لابد من خوض المعارك لاختيار شعار الدولة ( من مجموعة شعارات ) – وهذا الشعار يظهر في عملة الولايات المتحدة إلى اليوم. ولكن في وقت الاستقلال في عام 1789م كانت هنالك درزينات من العملات المتداولة في ( الولايات الشمالية ) قام المجلس الشمالي بطبعها، والذي

يمثل الجسم الحاكم والمسيطر على حركة الاستقلال ( وتم تزويد وطبع نفس العملة في بريطانيا لزعزعة جهود الحرب ) وهنالك عملات طبعتها الولايات والمدن والشعوب الأجنبية. حمّل البنك الوطني وهو ( الدائن الوطني ) الوحيد، المسؤولية للحكومة الفيدرالية فيما يتعلق بديون الولايات، وهذا لم يمر من غير معارضة شرسة. وأحد المشهورين المؤسسين للجمهورية الجديدة ، بالتحديد توماس جيفرسون ، يؤمن بأن القوة يجب أن تتركز على المركز.

لعقودٍ من الزمان بالأرجنتين ، كان هنالك سجال طويل بين المركزين الذين أرادوا من الضريبة أن تنفذ عبر أيادي الحكومة الوطنية، واللامركزيين الذين أرادوا أن تكون بالمحافظات. تمت إجازة الدستور في عام 1853م بنظام اقتسام الضريبة بين المركز والولايات. وظلّ التوتر قائماً ومستمراً والذي لم يهدأ إلا بعد القضاء على الاضراب المسلح بمحافظة بيونس إيرز في عام 1880م، بكلفة 2500 ما بين قتيل وجريح، معطين بذلك سلطة أقوى للمركز، حاول دومنجو سارمنتو زعزعة وتقليل وحدة الأرجنتين إبّان فترة حكمه ما بين 1868م إلى 1874م. وقال يمكنه من جعل الأرجنتين مستقرة، عندما لا يقتل كل من سكانها الأخر.

وبدلاً عن شعار الثورة الفرنسية وصرختها من أجل ( التوافق والحرية والمساواة ) – قال أنه يرضى بـ ( الحرية والهدوء والسلام ) ففيما يتعلق باقتصادات الدولتين، فإنها تبدو متشابهة ؛ فلكل منهما سكان فلاحين يدفعون حدودهم المستقرة والممتدة إلى ناحية الغرب إلى مناطق المناخ المعتدل العشبية.

وفي كلتا الدولتين يوجد رعاة البقر ( أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية )، حتى ارتقت هذه الحرفة وأصبحت رمزاً للشجاعة والاستقلال والصبر.

ولكن لو تأملنا بعمق نجد أن هنالك فروقات كبيرة في الطريقة التي يتم بها ذلك. وذلك أن أمريكا اختارت طريقة تمليك الأفراد والأسر أراضي جديدة ومسورة؛ بينما الأرجنتين حولت أراضيها لأيادي قلة من ملاك الأرض الأثرياء.

حالف الحظ أمريكا منذ وجود المستعمرات، بأن تستورد كثيراً من الخبرات الزراعية والأشخاص الملهمين من أوروبا الشمالية، والمزارعين القادمين من ( إنجلترا الجديدة ) والتي كانت بها كثافة سكانية عالية بولاياتها الشمالية – الشرقية، قدموا بصورة كبيرة من بريطانيا وألمانيا وهولندا. وكل هذه الدول عدد سكانها كبير وأراضيها صغيرة – جلب أولئك المزارعين تقاليد المزارعين المهرة من أراضي زراعية صغير المساحة. وعلى النقيض من ذلك، كان للأرجنتين قلة من ملاك الأراضي الأثرياء على مساحات كبيرة من الأرض التي تركها الأسبانيون ومعهم صفوة من الارستقراطيين الذين قدموا معهم، وكما بها نقص في العمالة أيضاً. جاءت الهجرات الكبيرة إلى الأرجنتين لاحقاً في القرن التاسع عشر؛ فكان لابد للدولة التوسع في حدودها بعدد قليل من الموظفين.

توسعت كلتا الدولتان في الاتجاه الغربي، فوصلت الولايات المتحدة إلى المحيط الباسفيكي؛ الأرجنتين إلى جبال الانديز ولكن لم يتم ذلك بنفس الطريقة، لأنه واجهتهما نفس المشاكل.

أمّا المساحات الشاسعة وطبيعة الأراضي الغير مألوفة، كانت بمثابة سلاح ذي قيمة لكلتا الأمريكتين. من غير المؤكد لا يمكن أن يكون الامتداد الغربي مقفولا لكي يعزل الخليج عن التكنولوجيا – وكان لابد للبنادق أن تتفوق على الفئوس والأقواس والأسهم

؛ ولكن المقاومة التي تمّ مقابلتهم بها ساعدت في تشكيل الاستقرار. وكانت أمريكا ترغب في المساكن المخالفة، بينما اعتمدت الأرجنتين على ملاك الأراضي. إن العجز عن التوسع غرباً وشح النقود كان سببا في أن تجد الأرجنتين طريقاً أخر وأفضل، وهو تشجيع المستقرين بأراضيها بالبيع نقداً ومقدماً لمناطق كبيرة جداً لكي يتم حجزها وتسويرها من السكان الأصليين لأمريكا، أو يوعدونهم بالمسؤولين العسكريين بالقيام بهذه المهمة. وهذا النمط كان ينطبق على طريقة الأداء مقابل الدفع : إذا لم يكن هنالك نصر بمجرد ما ينتصر أولئك العسكريين في المعارك، يتعبوا وتقل قوتهم وطاقتهم؛ ويصيب عمال الزراعة شح في الإمدادات لأن المسافة من الميناء الشرقي إلى الحدود بعيدة جداً. ويقوم أغلب ملاك الأراضي الجدد بتسوير مساحات كبيرة وتحويلها إلى مناطق رعوية. وتحتاج تربية الأبقار والأغنام استئجار أشخاص لعملية الرعي – ولكنها لا تترك مجالاً لزيادة الانتاجية بالمحسنات الزراعية وادخال الآلات الزراعية – كما هي ليست بالخطوات المتعثرة التي يمكن تصحيح مسارها. وهكذا كان تعزيز الفخر، أن تسيطر مجموعة صغيرة من الأغنياء، وملاك الأرض الأقوياء لسكان – حيث كانت السيطرة على الأراضي الأرجنتينية على مساحات شاسعة من المراعي، ولها عدد قليل ومتفرق من السكان – حيث كانت السيطرة على الأراضي الأرجنتينية، له أثر ضئيل في تغيير طبيعتها.

لقد فر المهاجرون الأوروبيين إلى الأرجنتين من ملاك الأراضي الأرستقراطيين في بلدانهم ، ليجدوا أنها يعيد انتشارها في العالم الجديد. فأوجه التشابه أكثر سطحية، ففي العقود الأولى من التجارة الزراعية ما بين فترة الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر – كانت نظرة ملاك الأراضي للحياة الريفية والنشاط الزراعي نظرة تجاهلية، وكثير منهم يعيش حياة المدن الناعمة، يقضون أوقاتهم منغمسين في الأدب

الأوروربي في الصالونات الآمنة؛ أكثر من قضاء وقتهم في تشغيل مزارعهم بأنفسهم وحتى القادمين من المهاجرين الجدد – أقرب ما يقومون به في الحياة الريفية هو رياضة ( البولو ) ، وهي ركوب الخيل، بالإضافة إلى أنها رمز دولة الأرجنتين الأليف – وبالرغم من أنها كذلك، كانت لصفوة من الناس وبأشكال حصرية حيث كانت بنادي الجوكي بمدينة بيونس إيرز والذي تأسس في الثمانينات من القرن التاسع عشر.

بنهاية القرن التاسع عشر كان البعض من هذه الصفوة يرسلون أبناهم إلى مدرسة أتون البريطانية ذات الرسوم المخفضة للطبقة الأرستقراطية، ونال القليل منهم شرف التصاهر والتزاوج من طبقة نبلاء أوروبيين. وبالرغم من أنها اعتبرت بما يعرف وبالمصير المكشوف، لتوسع بطموح وامبريالية – تتجه أمريكا غرباً لتصبح أكثر ديموقراطية.

عمدت الحكومة الأمريكية إلى تشجيع المزارعين بنظام التأجير الأصغر للأسرة؛ وحتى في حالة بيعها أراضي زراعية كبيرة كان احتمال ظهور طبقة ملاك الأراضي محدوداً. وكانت شكاوى السكان العشوائيين الذين يحيطون بالأسر ولهم مزارع صغيرة، محل اعتبار ربما دفع مهاجري الغرب أن يكونوا مع بعض، مشكلين كتلة واحدة. انضم رعاة أبقار ولم يقضوا أوقات كثيرة يحرسون بوابات مدارس الصفوة الإنجليزية يحرجون ويزعجون الداخلين. وبجانب تربية ورعاية الأبقار، كان لسكان الغرب انتاجية عالية من المحاصيل الزراعية كالذرة والقمح – وكان التوجه الكبير نحو الغرب فتح الباب الشرقي على مصراعيه؛ والذي ما لبث أن امتلأ بالمهاجرين الهاربين من البؤس والفقر في أوروبا. وبحلول الخمسينات من القرن الثامن عشر، كانت الولايات المتحدة تستقبل ربع مليون مهاجر في السنة.

قدم المهاجرين إلى الأرجنتين كما قدموا إلى أمريكا، وبعد فترة من الزمن زاد عددهم ليصبح مقدارا أكبر من المهاجرين إلى الولايات المتحدة – ولكن قدموا إلى الأرجنتين بمهارات قليلة؛ وكانت الأجور التي تعطى للمزارعين الصغار والعمال ليست مغرية. وتدني الانتاجية يعني تدني الأجور – والتي يعمل بها بصورة أساسية الفقراء والأقل حظاً من التعليم من مهاجري أوروبا الذين وفدوا بأعداد كبيرة. كان أغلب المندفعين المهاجرين للأرجنتين من إيطاليا وإيرلندا؛ قدموا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وفي عام 1914م ، ثلث سكان الأرجنتين كان من الأميين. ظلت هجرات الأوروبيين إلى الأرجنتين ، تدفع بأعداد منهم أكثر مما تأخذ. والزراعة الغير فعالة وعدد السكان المتزايد؛ وربما يمكنه أن يفي بالحاجة المحلية، إلا أن الروح المعنوية تحطمت بفعل صادرات الولايات المتحدة والأرجنتين الزراعية الرخيصة الثمن. ويمكن أن تكون نفس الحالة التي جعلت الإيطاليين يتركون أراضيهم ببلدانهم – بينما كان الإيرلنديون هاربين من المجاعة بسبب فساد البطاطا. استوردت أمريكا القوة الخاصة للزراعة البريطانية بالإضافة إلى عدد كبير من المتعلمين والعمال المهرة في الملبوسات والمنتجات الأخرى، ولكن طالما أن هنالك طبقة أرستقراطية تتحدث الإنجليزية، وتمتلك الأراضي وتمثل صفوة على رأس المجتمع الأرجنتيني، كان الويلزيون هم البريطانيين المستعمرين الزراعين هم الوحيدون الذين يتحدثون الإنجليزية – كانت له أهميته، حيث تمددوا في منطقة جنوب الأرجنتين في محافظة بتاغونيا وهي مناطق فقيرة ومعزولة وجبلية حيث يتبادل سكانها البرد عن المناطق عن بعضها.

كثيراً من المهاجرين غير متمسكين بنسخة الأرجنتين للحلم الأمريكي، وكان عدداً كبيراً منهم مسالمين، لا سيما الذين قدموا من إيطاليا أو اسبانيا لموسم الحصاد، ومن ثم

عادوا إلى ديارهم، وما بين عام 1850 إلى عام 1930 أصبحت نسبة من يحملون الجنسية الأرجنتينية من المهاجرين هي خمسة في المائة فقط. نالت إيطاليا كأس العالم لكرة القدم في عام 1934، وكان من ضمن فريقها ثلاثة لاعبين أرجنتينيين – وطالما أنهم ينحدرون من أصول إيطاليا ، اعتبرتهم مهمين ودفعت بهم للأمام في الجولة القادمة، مما أثار غضب المشجعين بالأرجنتين. ومن الصعب جداً أن تتخيل إبعاد انجلترا ، لأنها طالبت برياضيين أمريكيين من أصول بريطانية، ولم يكن انفتاح أمريكا للهجرة مضموناً مثل ما هو الحال عليه اليوم. ولم يكن هدف هجرات الحركة الاجتماعية البريطانية لأمريكا في القرن السابع عشر أن توسع الحرية والديموقراطية ولكن لإضفاء سمة جديدة ومختلفة للقدرة على إبراز وإبقاء نقائهم الديني.

أمريكا ذات المذهب البروتستاني، والذي يركز على العبادة والإخلاص، ويقلل من التمسك بالتقاليد واللبس، وقد تركت الكاثوليكية وجارتها الإنجيلية في أوروبا، وكثير من الأمريكان لا يريدون من هذين المذهبين أن يتبعونهم. وظهرت جمعيات العمال المولودين بأمريكا لتعارض الهجرة – وبدون أي موهبة مدركة النقد الذاتي، ظهرت حركة سياسية قوية في منتصف القرن التاسع عشر، وأطلقت على نفسها ( لا نعرف شيئاً ) وبعد الاستجابة لمطلبهم، وطلب منهم الإدلاء بمكان تجمعاتهم الشبه سرية، أرادت حركة لا نعرف شيئاً من الكاثوليك والأجانب منعهم من دخول المكاتب الحكومية، وكان هناك إضراب في مدينة نيويورك ضد القادمين – ولكن في نهاية المطاف انتصرت المعالجات العاجلة للنمو الاقتصادي، ولم تكن هنالك أي نقطة خلاف يتم التسابق عليها من أجل اقتسام الفطيرة، حيث أصبح الأمر واضحاً ومثبتاً عليها من أجل النمو المتسارع، ولم تكن أمريكا لعبة خاسر ورابح.

في ذات الأثناء كانت الأرجنتين تتجه إلى أسفل في المسار الخاطئ، وكانت تمتلك أراضي أكثر باستخدام غير فعال من عمال محليين أو تجلب عمالة للعمل بها. كانت الأرجنتين بصورة جيدة حتى القرن العشرين وذلك من قبل أن يصبح فساد مؤسساتها واضحاً. واخفاقاتها المستمرة وهي مقنعة بموهبة كبيرة وغير مكتسبة.

لم تكن المبالغة الغير مسبوقة في الكتابة عن الاقتصاد المعولم للقرن الواحد وعشرين في مكانها الصحيح، حيث كان هنالك تكامل كبير في الأسواق فيما يخص البضائع ورأس المال ( تحديداً ) البشر، خلال العصر الذهبي الأول للعولمة، وتقريباً في العام 1880 ى العام 1914م تزامن السلام في أوروبا مع نمو المدن والتي تبعها استهلاك في سكان الحضر.

تطور نظام التجارة العالمي بصورة سريعة ومدهشة. كما انخفضت تكاليف النقل بصورة كبيرة، فكانت تكلفة القمح في منتصف القرن التاسع عشر تفوق المرتين في مقصدها بلندن بالمقارنة مع مصدرها بمدينة شيكاغو، وتساوت تكلفتها بحلول عام 1913م. تثبت أغلب الدول الرائدة عملاتها بسعر الذهب لكي تضمن قيمة أرباح صادراتها.

كان الوقت مناسباً بأن يصبح لكل شخص مزارع عالمي جديد – حيث المنافسة الكبيرة في الزراعة بين الولايات المتحدة والأرجنتين ( مقارنة ببقية الدول )، ومقارنة واحدة منهما ( لها صلة بالصناعات الأخرى في العالم ). كانت صناعة التعليب موجودة مسبقاً ومندفعة بالحرب الأهلية الأمريكية. حيث كان لابد للجنود الذين يحاربون في مناطق بعيدة وتحديداً الذين يرابطون في المناطق الشمالية – من أن يتحصلوا على أغذية طازجة من مصادر مضمونة. ومن الماركات العالمية ذات

الشهرة الطويلة في بريطانيا ( Fray Bentos )، وهي لتعليب فطيرة اللحم مع الجلاتين، كانت بمدينة الأرغواي بالقرب من الحدود الأرجنتينية. والآن أصبح التعليب مزوداً بعمليات صناعية جديدة منتشرة في كل مكان، كتجميد وتبريد اللحوم. رأى الأمريكيون والأرجنتينيون باب السوق الأوروبية ينفتح على مصراعيه أمامهم؛ وبعد كل هذا وذاك يجب أن يلعب التخصص دوره في السوق العالمي. حيث تولى العالم الجديد بالزراعة وقامت أوروبا بصناعة الآلات. شكلت الأرجنتين والولايات المتحدة جنباً إلى جنب مع أستراليا وكندا القبضة القوية لفعالية وربح الزراعة العالمية الموجهة للتصدير. وتوسع الانتاج بكثافة كبيرة مستفيدة من التكنولوجيا الجديدة. وظهر لحم الأبقار الأمريكي بشكل كبير على موائد أوروبا. تركيز الانتاج في أصناف محددة كلحوم الأبقار والقمح بدأ موضوعياً في ظل السوق الناشئة وسلاسل العرض المؤسسة. وبنهاية القرن التاسع عشر الميلادي كان نصيب الفرد في اقتصاد الأرجنتين أعلى من نصيب الفرد من السكان لفرنسا، وأكثر بثلاثة مرات عن الفرد في إيطاليا.

**كتب زائر بريطاني للأرجنتين في عام 1914 :**

لا يذهب أحد عبر البلاد ليرى خصوبتها، يذهب إلى منازل القتل في لايلاتا وبيونس إيرز يشاهد بواخر المحيط ، ورافعات متدلية بصرامة تحمل اللحوم من جوانب عديدة، زر رافعات القمح بميناءي باهيا بلانكا وروزاريو، وهي تصب أنهراً من القمح المتجه للاستهلاك الأوروبي – داخل حاملات القمح، دون أن يصبح الخيال ملهماً عندما تقف على عتبة إمكانيات هذه الدولة الجديدة.

كان بإمكان دفع زيادة الأرباح في الصادر أن تبقى الأرجنتين خلف الولايات المتحدة، إذا استخدمت بصورة عقلانية، ولكن كثير من المال كان حكراً على مالكي الأراضي الرعوية الواسعة وليس لدى موظفيهم الذين يتلقون أجورهم بصورة سيئة ، والذين ينفقونها في بضائع المستهلك المستوردة أو يشتروا فيها مزيداً من الأراضي. احتاجت الأرجنتين أن تستورد أكثر من التكنولوجي، لكي تستفيد من زيادة أسعار السلع، وفي هذا الوقت من الصعب أن يحدث ذلك. البريطانيين موجودين على أرض الدولة – ضخوا الأموال والخدمات في السكك الحديد التي فتحت السهول، كما فتحت استراليا وكندا والولايات المتحدة من قبل.

لو كانت الأرجنتين تتبع الطريق الأمريكي، لفعلت ذلك ولكن في الفساد وليس في الفهم. استلفت الأرجنتين المال من البريطانيين، ولكن أمريكا تعلمت من خبراتهم أيضاً.

لقد بنت بريطانيا المرحلة الثانية للعالم، وهي التصنيع، وبساطة بوضع الآلة محل العامل – مما زاد إنتاجية المزارع وفائض الربح وقلل الطلب على العمالة. وتم استخدام المنجزات في استثمار الصناعة؛ فذهب العمال الذين حلت محلهم الآليات للعمل بمصانع المدن.

ذات الأرباح التي دفعت بالزراعة الأمريكية إلى الأمام ، ساعدتها في التصنيع. من المفيد أحياناً أن تكون الثاني في المشهد : حيث كان بإمكان الولايات المتحدة أن تتبع نفس المسار الذي تبعته بريطانيا وفشلت فيه. كانت هنالك ميزتين حسنتين بالتحديد ومألوفتين من الثورة الزراعية لأمريكا : واحدة هي تكنولوجيا صهر الحديد الموجودة

مسبقاً، الثانية هي تنتج بعض الدول الأوروبية ذات الأموال الضخمة التي تبحث عن الاستثمار بالخارج وتحديداً بريطانيا.

تعلمت أمريكا بسرعة شديدة، وبالرغم من ذلك استفادت من تجارة الزراعة والتي كانت لها ميزة جيدة بها، وبالاستثمار البريطاني، ولم يكن المال أو البضائع، وإنما الأفكار. وبوجه التحديد تمسكت ببناء الصناعة الانتاجية التي جعلتها تستفيد من التكنولوجيا المتقدمة، بينما تحاول بفتور أن تستخلص مزيداً القمح في نفس الحقول ، وهذا ما لم تتمكن منه.

أراد أصحاب الأعمال الأمريكيين أن يستثمروا أموالهم الخاصة في تصنيع بلدهم بالرغم من أنها كانت الأسرع نمواً في استيراد رأس المال في العالم – الشكر لحجمها وتنميتها السريعة، وكما أنها أبلت بلاءاً حسناً في مدخراتها؛ حيث وصف حجم رأس المال الأجنبي في أمريكا ليس أكثر من 10 إلى 15 في المئة من الاستثمار؛ مقارنة بأكثر من الثلث في الأرجنتين.

ولو أن الأرجنتين بكامل وعيها وإدراكها رفضت نفس التوجه لما كان ذلك؛ وكان باستطاعتها أن تجنِّب انتاجها الصناعة مالم تنسخ القرار الصيني الملحوظ مبكراً في الاحتفال بالألفية، لكي تتراجع عن العالم وتنظر للتكنولوجيا الأجنبية بنظرة ارتياب. ولكن عندما جاء التصنيع كان تأثيره محدوداً. وجاء متأخراً. ورفضت صفوة الأرجنتين العقلية و(الأفعال ) التي يتطلبها التصنيع؛ وبطريقة آمنة يحلبون الضرع الذهبي من زراعتهم، ولم ير سبباً موضوعياً ليخاطروا بوضعهم وعيشهم في عالم التصنيع الخطر والمتغير.

شراء الأشياء من أجل التباهي كان مسألة جاذبة جداً من أن تبقي المال في مشروع غير ثابت، والذي يمكن بأي حال من الأحوال يضرهم أكثر مما يساعدهم في أرباح الزراعة.

وبالرغم من التدفق الكبير للمهاجرين بنهاية القرن التاسع عشر، كانت الأرجنتين ما تزال تعاني من مرض نقص العمالة المستوطن ولم يكن هنالك أرجنتينيين جدد ليملؤوا المصانع.

جلب الأرجنتينيون نفس التعصب والصفوة إلى التصنيع التي كانت بالقطاع الزراعي، مفضلة الاحتكارات الآمنة ومحمية بمرسوم لوائح الحكومة من خطر المنافسة المجحف. تولّى الاقتصاد صناعة الأرجنتين الوليدة باهتمام، ولكن حركة انتاجها كانت قليلة .

كانت تنمية الأرجنتين خلال العصر الذهبي سريعة، لكنها غير مطمئنة، واعتمد في وجودها على استمرارية أسعار المزارع التي تحافظ على أسعارها من البضائع المنتجة والأسواق العالمية التي ظلت مفتوحة. وكانت الاستفادة من التكنولوجيا الجديدة وأسواق التصدير شيء مختلف جداً – وذلك في إيجاد مكان آمن في سلّم الاقتصاد المتصاعد؛ حتى يرقى باقتصاد الزراعة القديم إلى مرحلة الانتاج الصناعي.

كثير من الصناعات الانتاجية التي تنشأ هي إضافات لأعمال الزراعة، مثل ( Fray Bentos)، وهو مصنع لتعليب اللحوم، ولم تحل هذه الصناعات محل الزراعة، وإنما أصبحت تتولد منها وكانت منقادة خلف الزراعة وليس قائدة. أما النطاق الضيق للمنتجات الأرجنتينية – كان عبارة عن ورش يدوية وليس مصانع واستخدام رأس المال والتكنولوجيا المستوردتين. كانت قوى العمل غير ماهرة وظلت على هذا المنوال. أما

الثـروة والمكانــة الاجتماعيــة لصـفوة الأرجنتـين تمتلـك بعـض الصـناعات الحرفيــة كـالبنوك والنقـل ، كانـت مـا تـزال تعتمـد علـى امـتلاك الأراضـي، وتعتبـر الانتـاج الصـناعي شـيء حقير وتافه.

غالبـا أو علـى أو علـى أقـل تقـدير، مـا نجـد فـي كتابـات المـؤرخين أنهـم يتمحـورون فـي المسـتثمرين وأصـحاب الصـناعات فـي المـدن، عنـدما يتضـح جليـاً أنهـم سـيتمكنون فـي المسـتقبل أكثـر مـن مـلاك الأراضـي والمـزارعين فـي الريـف. وفـي العـام 1846م تـم الغـاء قـانون الـذرة فـي بريطانيـا– وهـو التعريفـة التـي كانـت قـد منعـت الحبـوب البريطانيـة مـن المنافســة، فــزادت قيمــة الأراضــي بطريقــة عشــوائية. أمــا فــي أمريكــا فكانــت الحــرب الأهليـة التـي انتصـر فيهـا الشـمال الصـناعي علـى الجنـوب الزراعـي – وكـان أقـرب حـدث لهـذه الأحـداث بـالأرجنتين هـو قيـام المؤيـدين لجـوان بيـرون ( منـه لاحقـاً ) أكثـر مـن قـرن بعد الغاء بريطانيا لقانون الذرة ، بإضرام النار بنادي الجوكي.

لـو كسـب الجنـوب الحـرب الأهليـة وسـيطر علـى الشـمال، لكانـت أمريكـا أقـرب مـا تكون للأرجنتين.

وكانــت الولايــات الجنوبيــة لأمريكــا قبــل الحــرب الأهليــة مألوفــة جــداً للأرجنتــين – ولايـات كبيـرة بهـا القليـل مـن مـلاك الأراضـي الأثريـاء وبعـض العمـال رخيصـي الأجـر ( الشـكر لقلـة الإنتاجيـة التـي لـم تجـذب عـدد إضـافي مـن العمالـة، وكـان بهـا أيضـاً عـدد كبيـر مـن سـكان الريـف ). وصـدروا عـدد مـن المحاصـيل وخصوصـاً القطـن لبقيـة العـالم، ولكـنهم بغيـر مقـدرة علـى التوسـع و. حيـث يـذهب القطـن لمدينـة ليفربـول لكـي يتحـول إلــى منســوجات بمدينــة لانكشــير، وكــان الجنــوب لا يقــوم بصــناعة الملبوســات فــي حــد ذاته.

وبالرغم من أن الحرب فيها منتصر أو منهزم، إلاّ أنها في الحقيقة واحدة من الأشياء التي جعلت التحول أكثر مما يستحق. أما النصر الذي حققه الجنوب في الحرب، ربما قيد وكبل التصنيع، ولكن لم يوقفه – حتى لو خسر وفشل الشمال في تحقيق الوحدة مع الجنوب بالقوة، قام بشق طريقه في بناء اقتصاد مرتكز على التصنيع والتجارة ، تاركاً الجنوب متقلباً في نصره الثابت، وكان التمويل والانتاجية يدعمان الزراعة حيث لا يمكن لأي دولة أن تستند فقط على الزراعة.

أصبحت تجارة المال والأعمال الأمريكية هاجساً في التسعينات من القرن الثامن عشر، حيث يرى المزارعون في الأمريكتين نزول أسعارهم نتيجة للطلب المتزايد ، طالبين طباعة أموال كثيرة لتثبيت السعر على كمية من الفضة أكثر مما كان عليه عند تثبيته على سعر الذهب. وظهرت حركة (الجمهوريين) السياسية لتعلن عن حالتهم. كما اعتبر رجال الأعمال والمستثمرين أن ربط السعر بالذهب ضروري جداً وذلك لمكانة الدولة كمركز تجاري ومالي وتم تأكيد احتفاظ الدولار بقيمته كعملة قائدة مثل الجنيه الاسترليني وقيمة شرائية. وأدت كمية الذهب المحدودة في العالم إلى ربط كل العملات الموجودة بالذهب. مما جعلها في حالة نقص محكماً الغطاء على التضخم عند التكلفة الكبيرة لتقلبات الناتج والتوظيف. أثارت الانتخابات الرئاسية في عام 1896، هذا الموضوع بصورة واسعة، ولكن انتصر المؤيدين لمقياس الذهب. وبالرغم من أن الجمهوريين وفشلهم في تحقيق مطلبهم المحوري إلا أن امتعاضهم وضع محل اعتبار؛ والاستياء الذي ظهر في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لسبب يبدو مألوفاً اليوم.

وقد ظهرت رأسمالية التمويل الغير منتظم لتقوية الأقلية، بينما اخضاعها لأي شخص لمحاولات التغيير الصعبة للاقتصاد. وبحكم أن الولايات المتحدة دولة ديموقراطية ، رأت أن ذلك غير سليم وتفاعلت مع الموضوع.

ظهرت الحركة التقدمية للحد من الأشياء الغير ضرورية والمتزايدة للعصر الأول للعولمة. وكان الرئيس ثيودور روزفيلد 1901 – 1909، قادراً على توسيع وإعادة توزيع ما يجنيه من البيض الذهبي دون قتل الأوزة.

اندلعت حملات فقد الثقة وأنهت سياسة استغلال النفوذ والمطالبة بقوانين جديدة تحمي المستهلك من رداءة الغذاء والدواء – وفي وقت لاحق عدِّل الدستور الأمريكي فيما يختص بضريبة الدخل القومي ، وحق المرأة في التصويت، وكما ظلت الثقة موجودة في الحكومة الأمريكية، وبذلك نجا نظامها من التدهور. بالمقابل، ظلت الأرجنتين في حالتها القديمة.

كان للأرجنتين طبقة عالمية ذات قطاع اقتصادي متفرد معتمداً على جلب الاموال والتكنولوجيا من الخارج، مما جعل فرصتها فقيرة.

كان هنالك تغيير كبير ومفاجئ في القرن العشرين، حيث ظهرت به أسواق وأحداث غير مسبوقة – مما يتطلب مرونة وسرعة في التعامل مع ردود الأفعال. نالت بيونس إيرز نظرة للمستقبل في عام 1891، و( كطفل الامبراطورية الأسبانية – تتبعت الأرجنتين تقاليد الأسرة : كان فيليب الثاني / ملك أسبانيا في القرن السادس عشر، أو من أخفق في تسديد الديون للمرة الرابعة).

نشاط وانتاج صناعي مرئي، يتقدم اقتصاد مثل اقتصاد أمريكا–واقتصاد فقير وغير مكتفي ذاتياً مع جلب تمويل من الخارج لتصدير الحبوب واللحوم للأسواق الخارجية – هو اقتصاد الأرجنتين الذي أخفق. وبنهاية القرن التاسع عشر لم تبق هنالك أراضي للتوسع بها، إلا أن الزيادة في السكان والانتاج الزراعي وككل المقاصد والأسباب الزراعية جعلت الأرجنتينين بعيدة عن طاولة الأمم.

ربما دخلت أمريكا إلى القرن العشرين بخرافة النهوض بنفسها، لتركب الأمواج الصفراء لحقول الحبوب الممتدة من البحر إلى البحر، ولكن في حقيقة الأمر أن مستقبلها الذي تلى ذلك، هو مجمعات من الصناعات في شيكاغو وتبسبيرج وكليفلاند، مثل صناعات بريطانيا التي كانت بمانشستر وشيفيلد وجلاسفو.

كان واضحاً أن الحرب العالمية الأولى مثل الحرب الأمريكية سبباً موضوعياً لكتابات المؤرخين إلى نهاية العصر الذهبي الأول وتحديداً تدفق رأس المال الدولي والتجارة التي وصلت للقمة في عام 1914م، ونزلت بصورة حادة من الحربين الأولى والثانية. ولكن لوجود المال والسلاح وفي فترة قصور العرض كانت الحرب وقت جيد للدول التي تمتلك رأس المال والمصانع والأمن والسلام. ولذلك كانت أمريكا معزولة من الحرب وأرباحها متزايدة؛ وقد بنت نظام تمويل ناجح وسلفت الأوروبيين المال، لكي يشتروا صادراتها من الأسلحة التي يقتل بها بعضهم البعض – وبنهاية الحرب أصبحت أمريكا الدولة الأفضل في العالم للصناعة ، والدولة التي تعلمت بسرعة لتصبح من المسلِّفة للأوروبيين إلى دولة نظيفة من الديون.

باعت الدول الأوروبية أصولها حول العالم، مواجهة بحرب طويلة ومكلفة، وتحديدا فرنسا التي ألقت استثماراتها لدولة روسيا بعد الثورة البلشفية في عام 1917م.

نالت الولايات المتحدة بعض هذه الأصول بثمن بخس. أما الأرجنتين لم تتمكن من شرائها وظلت تعتمد على الاقتراض من الخارج مما أثر سلباً في تدهور الاستثمار الدولي. لا سيما بيع بريطانيا لأصولها كان بمثابة تهديد وليس فرصة. وفي عام 1914م كان معظم رأس المال بالأرجنتين يتمثل في السكك الحديد والمصانع والتليغراف وتعليب اللحوم. كلها يمتلكها الأجانب– وهنا سؤال يطرح نفسه، من الذي يدفع للبنى التحتية للأرجنتين ؟ – وبعد مرور خمسة عقود من التركيز الضيق على الاستثمار الخارجي والصادرات، كانت الأرجنتين منطقة صادرات وليس قوى مالية وعمالية.

أظهرت ضغوطات الحروب الداخلية، وتحديداً فترة الكساد الكبرى بعد عام 1929م، أن الولايات المتحدة والأرجنتين دخلتا معسكرين مختلفين؛ في الوقت الذي أثر فيه الكساد على الرأسمالية أكثر من غيرها – حيث كانت المدن الأمريكية والأرجنتينية ممتلئة بالسكن العشوائي والذي كان يعرف في الولايات المتحدة بالـ ( الهوفيرفيليز ) نسبة للرئيس الأمريكي (Herbert Hoover) الذي عاصر فترة الكساد، كما يعرف بالـ ( Villas Miserias ) في الأرجنتين.

انتقلت الأزمة بصورة سريعة عبر الأسواق العالمية للبضائع والأموال، مبينة غباء الاعتماد على المصائد العالمية. ولكن تفاعلت الأنظمة السياسية في كلاً من أمريكا والأرجنتين بطريقتين مختلفتين ؛ كما أن الكساد دفع وزاد الهوّة بين الديموقراطيين والدكتاتورية.

تفاعل النظام السياسي في الولايات المتحدة ما بين 1880م – 1914م للتغيير، وذلك باستلهام رؤى وأفكار جديدة، توافق متطلبات المتذمرين؛ بينما ظلت مجموعة

صغيرة وصفوة تسيطر على السياسات الأرجنتينية. وكان على سدة الحكم في أمريكا نفرٌ من الضباط الكونفدراليين السابقين – اجتمعوا في البيت الأبيض بعد الانتصار في الحرب الأهلية، يناقشون موضوعات سياسية طفيفة – بينما خضعت الفلسفة وأبطالها للتدمير في الأرجنتين ؛ وبالرغم من أن السياسة كانت تمارس في جو درامي، إلا أنها وطيفها السياسي كانا على نطاق ضيق.

يمك للدولة أن تتحصّن ضد التشدد السياسي بإعطاء الفرصة للفيروس في مرحلة الضعف أن يتحرك بسهولة؛ وهكذا كل الدول التي لها الثقة والقوة – تستطيع أن تدير شؤونها وتحدياتها التي جاءت على أعقاب انهيار سوق العملة في عام 1929م؛ والتي بدأت في وول استريت وانتشرت سريعاً إلى أوروبا. ونشبت الأزمة الاقتصادية في نيويورك التي تعتبر من أكبر المراكز العالمية المالية، لتبرز تساؤلات فيما يخص قيمة الليبرالية الديموقراطية واقتصاديات السوق الحر. واستطاعت وما تزال أمريكا تتعامل مع أفكار جديدة كتدخل الحكومة في الاقتصاد دون خوف، ولأن مثل هذا التدخل القصد منه إنقاذ الاقتصاد وليس موته.

من الأشياء المعروفة في عهد الرئيس الأمريكي فرانكلين ديلانو روزفيلد ، هي انتخابه في منتصف الأزمة الاقتصادية فيعام 1932م. وبالرغم من بداية عمله السياسي في الحكم وعلاقته البعيدة من الرئيس ثيودور إلا أنه رأي أن الإصلاح ضروري ؛ وقابل الكساد بسيسات تختلف عن تلك التي كانت للعصر الذهبي – ودعّم أنظمة البنوك وقام بحملة منافسة للاستثمار والحد من العجز الفيدرالي، وكما جعل الإنفاق الحكومي يملأ الفراغ الموجود بالاقتصاد. وكأنما الولايات المتحدة تشعر أن ذلك العهد انتهى . تخلّت هي عن العمل بمعيار الذهب أيضاً.

كـان الانفـاق الحكـومي الفيـدرالي للخطـة الاقتصـادية مـا يعـادل 3% مـن الـدخل القـومي فـي عـام 1929م ، وأطلـق عليـه المعيـار الجديـد ولـم يرجـع الولايـات المتحـدة سـريعاً لاسـتيعاب المـوظفين نسـبةً للمعيـار التقليـدي لموازنـة الميزانيـات فـي العـام 1937م – وظـل حتـى فتـرة الاسـتعداد للحـرب فـي عـام 1939، حيـث تطلـب انتـاج المصـانع لـدفع الاقتصاد.

وكـان هنالـك أثـر واضـح لجهـود الحكومـة الفيدراليـة فـي هـذا النظـام، حيـث الأفكـار الجديدة وقابلية التجديد والصلابة.

ولكـن مثـل هـذه الإنجـازات تتطلـب اجتيـاز المعارضـة والـرفض مـن قبـل رجـال المـال والأعمـال – الـذين يـرون أن تركيـز المعيـار الجديـد للحكومـة فـي الضـمان الاجتمـاعي أو أي تعديلات في النظام ستقوده للخراب.

هنالـك قاعـدة بسـيطة لتفاعـل الأنظمـة السياسـية مـع الكسـاد، تعكـس مـا يحـدث عنـدما تتجمـد أمـوال النظـام العـالمي وهـي أن الـدول التـي تقـرض الأمـوال أوقفـت ذلـك لأنهـا لا تـرى ميـزة إيجابيـة فـي الاسـتمرار والاعتمـاد علـى النظـام العـالمي الـذي يجعلهـا تتراجـع؛ بينمـا الـدول المدينـة عانـت خسـارة أقـل، وظلـت داعمـة للديموقراطيـة والاقتصـاد العـالمي – حتـى علـى مسـتوى دول الجـوار وداخـل القـارات سـرت هـذه القاعـدة. ورغمـاً عـن وجـود أصـول ثابتـة بالخـارج لدولـة فرنسـا والأزمـات السياسـية المتكـررة فـي الثلاثينيـات مـن القـرن العشـرين؛ إلا أنهـا ظلـت ديموقراطيـة – بينمـا ألمانيـا جارتهـا المدينـة رغـم النجـاح المبدئي لجمهورية ويمار، رضخت بسرعة للفاشية.

علـى النقـيض مـن أمريكـا ، فـإن الأرجنتـين عانـت أزمـة عميقـة بسـبب نطـاق صـفوتها السياسـية ؛ واسـتمر برنامجهـا الانتخـابي إلـى عـام 1912م، وجـاء للسـلطة حـزب جديـد

فـي عـام 1916م. ولكـن علـى مسـتوى التطبيـق والممارسـة كـان لـه اخـتلاف بسـيط؛ وشـعور النـاس بـالكره لكـل مـن يضـرب الأشـياء الاجتماعيـة بيـد مـن حديـد وتـدهور الأسـعار الاقتصـادية جعـل هـذا الجـذب مشـلولاً. أمـا صـادرات اللحـوم والقمـح التـي تميـزت بهـا الأرجنتـين – تلقـت هـي الأخـرى ضـربة قويـة وبنهايـة القـرن العشـرين هبطـت صـادرات اللحـوم الأرجنتينيـة لقـارة أوروبـا بـأكثر مـن ثلثـين مـن مسـتواها فـي العـام 1924م. وكمـا نالـت بطولـة الثيـران السـنوية الشـهيرة عـام 1932م فـي بـاليرمو بمدينـة بيـونس إيـرز أدنى سعر لها منذ خمسة وعشرين عاماً.

خـاطرت الأرجنتـين بأموالهـا فـي مشـاريع لا تسـمن ولا تغنـي مـن جـوع ، وهـي تـدرك مـدى غبـاء الاعتمـاد علـى التمويـل الخـارجي لتنـتج وتبيـع كميـات كبيـرة مـع صـادرات بسيطة لأن فشل إدارة النظام يعني أن النظام متغيِّر.

أدركـت الصـفوة الحاكمـة بـالأرجنتين حجـم وطبيعـة المشـكلة فـي الثلاثينـات مـن القـرن العشـرين – إلا أنـه جـاء متـأخراً لأنهـا لا تـزال أكبـر المقترضـين؛ والـتحكم القـويّ فـي أنظمـة البنـوك جعـل بعـض المسـتثمرين الأجانـب النفـور مـن الدولـة، وأصـبحت المؤسسـة عديمة الثقة لأنها بنت مشروعها على أرضية هشة.

تفاعلـت لنـدن مـع الأزمـة فـي ثلاثينـات القـرن العشـرين ودعمـت خيـار الأمبرياليـة، مسـتقبلة وأرادت مسـتعمراتها دون الـدول الأخـرى. ولكـي تعـالج الأرجنتـين صـادراتها مـن اللحـوم إلـى بريطانيـا – وقعـت اتفاقيـة بهـا مراعـاة كبيـرة للشـركات البريطانيـة، متضـمنة تسهيل الحصول على أرباحهم وخروجها من الأرجنتين.

تـدهور الطلـب للصـادرات نتيجـةً للحـرب العالميـة الثانيـة، وانتهـت اللعبـة لتجربـة مـع الديموقراطيـة الليبراليـة. قـام فبريريكـو بينيـدو، وهـو مـن ألمـع الـوزراء فـي حكومـة

الأرجنتين في عام 1940م بخطة صغيرة للتعامل مع الاتفاق الجديد مع أمريكا. وكانت الخطة مشتملة على توسيع الضمان للمنتجين وتقليل التعرفة الجمركية على الواردات من المواد الخام والمدخلات الإنتاجية الأخرى؛ ولكن ماتت هذه الخطة بين من يدّعون أنهم صفوة الأرجنتين.

يبدو أن الليبرالية الديموقراطية والاقتصادات الليبرالية قد فشلت، كما فشلت في جمهورية ويمر، وكانت النتيجة شبيهة في الاتجاه إن لم تكن بالتشدد. تم خلع الرئيس بمساعدة الجيش – وحلّ محله شيء أقرب للفوضى السياسية حيث قامت القوات العسكرية بردع المتظاهرين العمال في الشوارع؛ وأصبحت القومية وطريقة الحكم الذاتي هي الأنسب بينما حكومات ديموقراطية تعيسة الحظ، وتتداول السلطة بطريقة ضعيفة فيما بينها لم تكن مناسبة. حيث أراد المسؤولين الجدد للدولة أن تسترد مصيرها بأيادي وطنية. جاء جوان بيرون ليمثل المذهب الجديد، وهو من الجيش وهو أحد قادة الانقلاب الذي أطاح بالحكومة المدنية في عام 1943م، وأصبح رئيساً في عام 1946م؛ ومن الأشياء التي أدت إلى شهرته هو أسلوبه المباشر، بعكس ما كان يتبعه المسؤولين المدنيين.

شرع بيرون في تنفيذ المذهب الوطني لدولة الأرجنتين بالرغم عن قوته في الانتخابات – ازدادت نبرة الفاشية وتمت عندما جلس على كرسي الحكم. وكان شخصية لها نمط يختلف عن الذين حكموا البلاد في الماضي من الصفوة – حيث جاء بنظام اقتصادي نازي وحكومة قوية وعمل منظم ومجموعات اقتصادية توجّه وتدير نظام الاقتصاد.

جاءت تلك الأفكار لأمريكا أيضاً، ولكنها لم تكن بصورة جدية مثل الأرجنتين؛ ومختلفة عن أوروبا حيث كانت أمريكا متّحدة، ولم يكن لديها الوقت الكثير للمذهب الاجتماعي أو الشيوعي. استطاع الرئيس الأمريكي روزفيلد أن يختار أغلب ناشطي العمل الراديكاليين في التحالف الذي يدعم الاتفاق الجديد – وكانت هنالك حالة عدم رضاء واسع بالنظام الاقتصادي ولكن التمسك بالديموقراطية كان قوياً.

من السهل جداً أن نرى صورة مطابقة للبيرونية في أمريكا لو أنها سلكت نفس طريق الأرجنتين. وكان للجنة الأمريكية الأولى وحركتها الحيلولة دون دخول أمريكا للحرب العالمية الثانية حالة فكرة ضاغط، وهو نفس الخوف الذي أشار إليه الرئيس جورج واشنطن بالـ ( اختلافات أجنبية ).

مثل تلك الحملات شبيهة بالبيرونية، فهي تستقطب من يرون أنفسهم أصحاب أفعال وليس أقوال ولكن كثيراً ما يتسترون على الظلم والكراهية.

كان البطل الوطني الأمريكي شارلس لينبرج هو أوّل محامي للجنة الأمريكية الأولى – وهو أول كابتن يطير عبر المحيط بمفرده، والذي عاتب اليهود لمحاولتهم إقحام الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية. وكان هنالك إنعزاليين غوغائيين مثل الأب ( شارلس ) كوغلن الكاثوليكي، صاحب برنامج إذاعي جاذب لملايين المستمعين نسبة لانتقاداته اللاذعة لسياسة التحرير المالي الرأسمالية والشيوعية – من أجل أن يجري الاقتصاد عن طريق شركات كبيرة واتحادات العمال. وأظهر تقدير كبير لهتلر وموسيليني، وأصبح برنامجه الإذاعي ضد السامية.

بالرغم من الجهود المبذولة من اللجنة الأمريكية لإبقاء الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب لعامين – حتى هجوم ميناء الجوهرة في عام 1941م، لم تكن بالقوى السياسية

الخطيـرة؛ وكمـا أن مـدافعها المعاصـر باتريـك بوكنـان، الجمهـوري المتـبجح بانتقاداتـه الشديدة للتدخلات الخارجية قلّما وجدت دعم لرد فعل مؤثر.

تعتبـر أمريكـا مجتمـع عسـكري، كمـا أنهـا تسـير بالديموقراطيـة ولكـن العسـكريين السياسـيين أمثـال ( داويـت دي. إزنهـاور وكـوين بـاول ) دخـلا إلـى السياسـة بالنظـام الـديموقراطي، ولـيس مهـددين بتحديـه؛ والعسـكري الوحيـد الـذي تحـدى الـرئيس هـو دوغـلاس مـاك آرثـر ، قائـد قـوات الأمـم المتحـدة فـي الحـرب الكوريـة بـين 1950م – 1953م والـذي تحـدث ضـد قـرار هـاري إس ترومـان الـذي يقضـي بمفاوضـات إنهـاء الحـرب. وربمـا نـال مـاك آرثـر الاعتـذار الرسـمي مـن البيـرونيين؛ واكتسـب بعـض الشـهرة لإطلاقـه الغـاز المسـيل للـدموع لتفريـق الخبـراء العسـكريين – لتظـاهرهم فـي خصـومات المعـاش بواشـنطن فـي عـام 1930م. وقـد قـام ترومـان بحـل محلـه فـي قيادتـه للجـيش بكوريا، فتراجعت شهرته وتبددت تحت ضغط الرأي العام.

حـدث مـا قالـه آدم سـميث، وهـو أحـد خبـراء الاقتصـاد المعاصـرين – أن هنالـك خـراب كبيـر للأمـة. وحتـى خـلال العقـدين الضـائعين بـين الحـربين، كانـت الأرجنتـين واحـدة مـن الـدول العشـرة الغنيـة اقتصـادياً فـي العـالم، ولكنهـا لـم تسـتطع أن تبقـى لفتـرة طويلة.

كانـت الأرجنتـين تـدرك شـيئا واحـداً بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وهـو الاعتمـاد علـى أمـوال الخـارج وأسـواقه كـان خطـأً كبيـراً؛ ودخلـت ردة الفعـل لمشـاكل الثلاثينـات مـن القـرن التاسـع عشـر بقـوة إلـى السـطح الأيـدولوجي – وكمـا نالـت الأرجنتـين اسـتقلالها مـن المستعمرات الأوروبية من قبل، كان من الطبيعي أن تطالب مرة أخرى.

إن مفهوم البيرونية يعنى الشراكة وليس السوق الحر أو الاقتصاد الاجتماعي. ومما لا جدال فيه أن الأرجنتين عاشت فوضى كبيرة في الأسواق الحرة للسلع والمال والناس تبني اقتصادها على مؤسسة العمل ذات الولاء الوطني والحكومة وأصحاب الصناعة. لاقت فكرة النظام الجديد للاكتفاء الذاتي عدداً كبيراً من المؤيدين، وأصبح يطلق عليها ( بديل الاستيراد ) ، وتيقنت الأرجنتين أن سبب معاناتها ناتج من أنها أصبحت مستعمرة اقتصادية، حتى لو أنها توقفت من كونها من مستعمرة سياسية – فإنها تصدر سلع رخيصة الثمن وتستورد سلع ومنتجات بقيمة أكبر.

وهنا بعض الحقيقة، ولكن لا يكمن الحل في أن تصنع على حساب الاقتصاد! لم تكن الإجابة الصحيحة.

حجزت الأرجنتين شركاتها المنتجة خلف حائط الحماية المرتفع – حيث كان باستطاعتها أن تمضي مثل الدول الأخرى والتي من بينها الولايات المتحدة التي تسلقت بجدارة من بدايات زراعية إلى سلم التطوير للصناعات الناشئة وذلك بترقيتها وإيصالها مرحلة النضوج؛ ونقل منتجاتها من السوق المحلي إلى العالمي. أما الأرجنتين كان هدفها من المنتجات بناء قاعدة للسيطرة على الصادر، وليس ابعاد المستورد. وشركاتها فاسدة ومحمية ليس فقط من الخارج ولكن من المنافسة المحلية أيضاً– بالتدخل الحكومي الكبير في الاقتصاد،

ساعدت الآثار البسيطة للتصورات الفلسفية في اكتساب أرضية ديموقراطية السوق؛ كإعادة بناء دول أوروبا الغربية لاقتصاداتها الضعيفة، وكثيراً منها وسّعت دور الحكومة بتوظيف الصناعات الكبيرة، ووعدت شعوبها بحياة رفاهية.

كانت بعض أموال إعادة البناء تأتي من أمريكا – مكملة عملية الانتقال من دولة دائنة لتصبح مصرفها. وبالرغم من ذلك أن الولايات المتحدة نفسها لم تظهر حماس لتوظيف مستويات اقتصادها القوي عبر القومية.

في حقيقة الأمر أن وجه التشابه بين أوروبا الديموقراطية والأرجنتين كان سطحياً – حيث امتلكت حكومتها زمام الأمور مما قاد اقتصادها إلى اتجاهين مختلفين. حيث كان للأرجنتين الشعور بالخوف من الأسواق الحرة؛ بل تحل محلها أو تغيرها. أما في أوروبا فإن الحكومة تعمل على تصحيح اخفاقات السوق وليس إزالته بالكامل. وكانت الرأسمالية أسيرة بالأرجنتين ومطوقة بأوروبا – وعادت كل من أوروبا والولايات المتحدة على بعضهما بالفائدة وليس كل واحدة على نفسها.

تم انشاء نظام رائد لمعدلات الصرف الثابتة ، والتحكم في رأس المال في الاجتماع الذي عقد ببريتون وودز– نيوهامشير في عام 1944. والضربة التي تلقتها عولمة العصر الذهبي يجب الا يتم تكرارها – وأن يكون المال السائب للمضاربين داعما لإنتاج السلع والخدمات . ولمتابعة النظام أنشأ الاجتماع صندوق النقد الدولي (IMF) وهو المؤسسة التي حققت حالة الروح الشريرة في نظر الأرجنتين، كما سنرى لاحقا .

بدأ الأوربيون والولايات المتحدة سلسلة من المحادثات العالمية الأولى لتقليص حواجز التجارة – شارعين في إزالة حالة الخوف التي سببتها الحماية خلال فترة الكساد .

سارت الأرجنتين كالأعمى في الاتجاه الاخر – رافضة بتملق لمبادئ التجارة المفتوحة . وكانت رؤية البيرون لرأس المال الاجنبي بالعميل الامبريالي، ومثل هذه الافكار شائعة في دول العالم النامية وتحديدا في الدول الافريقية في تخلصها من قيود الاستعمار. بلا شك ان الرأسمالية الامريكية لم تثبت بكفاءة أيضا أنها أنموذجا ملزما. وعلي أي حال فإن الحركة البيرونية طورت

أيدولوجية متعصبة حيث أصبحت ( ضد الأمريكانية ) هي الأداة المفيدة للحركة. وكان للدور القيادي الذي لعبته امريكا في الحرب الباردة يجعل من السهل ان يطلق عليها (الحارس).

ليس بالضرورة ان تكون واحدا من العديد المحللين النفسيين – مشهورا باستمرار بين صفوة الارجنتين لترى الشكل المقزز للغيرة. واعتاد الأرجنتينيون برؤية انفسهم متساوون مع الأمريكيين في أي دولار ينمو في مساحة الدخل بين الدولتين، وهذا الشيء من الصعب تصديقه.

أثبتت الأرجنتين أنها غير جديرة بثروة واستقرار اوروبا التي بنيت على الاستقلالية للمستعمرات، والتي من بينها الارجنتين. لم يفسد الركود الاقتصادي ظهور امريكا كدولة عظمى وغنية – بالرغم من أنها نالت استقلالها من أوروبا قبل الأرجنتين بفترة ليست بالطويلة .

كتب فيدريكو بينيدو في عام 1961 وهو صاحب خطة انعاش الاقتصاد الفاشلة عام 1940 – أنه يتحسّر لأن الارجنتين لم تكن عضو مؤسس للمنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية؛ ولاشك أن واحدة من الدول الغير محظوظة التي ترى الدول الغنية ( بما فيها الولايات المتحدة) أنها تحتاج لمساعدة. ومن بين الدول التي تمنح مساعدات، دولة الدنمارك الصغيرة والتي تصدر اللحوم والزبدة. ولكن دول ذات سكان ريفيين مثل استراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ولاشك ان أن المنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية ( OECD ) ضمت دول اوربية بها اجيال مزدوجة؛ والتي هاجرت الى الأرجنتين في بحثها عن حياة افضل وختم بينيدو: ( وهذا عتابا غير مقبول).

في ذات الوقت كانت اليابان الأولى ترتيبا لدول شرق آسيا في التصنيع؛ حيث بدأ نموها ظاهرا عن طريق الصادرات.

سيمون كزينتيز أحد أوائل الأكاديميين الذين يدرسون اقتصاديات الدول الفقيرة – اعتاد أن يقول هنالك أربعة انواع للدول : متطورة ونامية واليابان والارجنتين .

بدلا من أن تواجه الأرجنتين حقيقة مشاكلها – امتد احساس انها ضحية ليشمل الاقتصاديات الناجحة داخل قارتها، مثلها مثل الولايات المتحدة وبقية الدول عبر الأطلنطي . حيث أصبحت سياسات الأرجنتين يسيطر عليها الشعور بالامتعاض والتعالي الغير مرغوب فيه . ولكل اخفاق في الارجنتين عذر مفبرك؛ وتمثل نجاحاتها العابرة عدم كلل الارجنتين من التغلب على الغطرسة. من الأمسيات الغير عادية التي قضاها المؤلف، كانت في عشاء المنتدى الاقتصادي العالمي بمدينة دافوس وذلك لمناقشة ديون الارجنتين في عام 2001. ومن بين العديد من الحضور كنت أنا ومعي محام متعاقد من نيويورك والذي اعتبر ان الارجنتين كانت السبب في قدرها وليس من متغيرات العالم من حولها.

ظلت الأمم التي تؤمن بنظرية الوجود الذاتي تخطئ باستمرار في خياراتها؛ وكانت الهند من بينها قبل ثورتها الاقتصادية مؤخرا، وكان جزء من مشاكلهم أنهم يقارنون أنفسهم بأنفسهم. أما الأرجنتين كانت أسوأ لأنها قارنت نفسها بصورة مغشوشة من نفسها– حيث وجدت اختلاف مؤلم جدا ولا يطاق – وهنالك كراهية متوافقة بين الأرجنتين وجارتها البرازيل. وكانت المزحة البرازيلية المعروفة في العالم، أنه اذا أردت أن تشتري أرجنتينياً ، فاشتريه بقيمته وإذا أردت بيعه فبعه بالقيمة التي يعتقدها.

لم يحظ التفكير بهم ومحنة الارجنتين الكثير الا نفسها، كانت الولايات المتحدة تجهل في طريقة تعاملها مع الارجنتين، وترى ذلك دون مستواها – وبمجرد انها تيقنت بان الارجنتين لا يمكن أن تتحالف مع الاتحاد السوفيتي ركزت انتباها على بقية الدول اللاتينية حتى لا تنحو في نفس الاتجاه. ونجحت الى حد كبير ولكن على حساب أنها دولة حاضنة للديموقراطية الليبرالية.

طلعت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية كما طلعت من الاولى برصيد اخلاقي ومالي من أوروبا؛ ولمدة ثلاثون عاما بعد الحرب العالمية الثانية، أرست الولايات المتحدة أحد

أركان النظام المالي العالمي؛ حيث اصبح الدولار العملة الصعبة التي تعتمد عليها مجموعة بريتون وودز في خططها.

إن الاقتصاد الأمريكي يمضي في المسار الصحيح وارتفع بسبب التجارة النظيفة والتكنولوجيا والنمو– مما دفع دول اوروبا الغربية جميعها، حتى أن البعض نعت الثلاث عقود التي تلت عام 1945م بالعصر الذهبي الثاني، وكان الاقتصاد العالمي أقل تكاملا خلال الحرب العالمية الثانية بخلاف الأولى، وكانت الأرباح عالية وانتشرت باستمرار.

وفي تلك الفترة شجعت الأرجنتين عملية التصنيع داخل الدولة الواحدة، حيث ارتفعت حوائط رسوم البضائع الكبيرة حول الصناعات الجديدة المفضلة، ووصلت الرسوم الى نسبة 84% في بواكر الستينيات من القرن العشرين في الوقت الذي تم فيه تقليص الحوافز بين الدول المتقدمة في اوروبا وبين أوربا واستراليا وبين الولايات المتحدة وكندا . أما الأرجنتين فرضت ضرائب على الواردات والصادرات؛ وكانت البضائع الارجنتينية للأرجنتين، ولأنها تعتبر واحدة من أكثر الاقتصادات انفتاحا في العالم انكفأت الارجنتين على نفسها بخلاف الولايات المتحدة التي انفتحت على اثار الحماية خلال فترة الكساد ونمت بها التجارة اكثر من الدخل القومي.

كانت حركة البيرونية اكثر في الحضر، حيث تستقطب الأرجنتين سكان المدن بأعداد كبيرة حتى قبل التصنيع وذلك مدفوعين بقلة الفرص في الريف ومنجذبين بتوفير الوظائف بالمدن .ولم تتوقف حركة انعاش الاقتصاد خلال الحرب ونهايات الثلاثينيات حركة نزوح سكان الريف للمدن الكبيرة وفي الأصل هم رمز الكساد وفشل الرأسمالية العالمية والان يمثلون عنصرا فاعلا تعتمد عليه قوة البيرون.

نجحت المدن بوجود الصناعات الحديثة علي حساب افقار الريف وكان أصحاب الأراضي والمزارعين يدخرون من أجل التصنيع ومازال دخلهم يعتمد على تقلبات وتعقيدات الأسعار العالمية للسلع.

وظلت اسعار تراكتوراتهم وسياراتهم وحتى ملبوساتهم مرتفعة بسبب فرض الضرائب على المستوردات وكما تحكم البيرون في اسعار المواد الغذائية المحلية في نقلها من الريف الى المدن .

أكبر اهتمام البيرون أنه يدافع عن العدالة ويرى أن ملوك السهول يجب ان يخلو مقاعدهم الوثيرة اما الصفوة من الاثرياء الارستقراطيين هم عبارة عن حفنة اجانب لا يريدون تقدم هذه البلاد، وفي عام 1951 صرح البيرون معركتنا هي الدفاع عن العدالة ضد الامبريالية وردود افعالها بالخارج وضد الصفوة الذين ليس لهم ولاء بالداخل وأمطر ملاك الأراضي التقليدين بوابل من القوانين فيما يتعلق بتثبيت الأسعار للإيجار والتي أجبرت كثير منهم بيع اراضيهم للمستأجرين. وبعد فترة من الوقت ما بين الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين رأوا فيها تدهور أراضيهم، وما يزالوا في عقلية العامة بانهم رمز يمثل الصفوة الغنية، اراد البيرونين تشويه صورتهم غضب المزارعون من العائد الذي فقدوه نتيجة لرسوم اسواق التصدير مما جعل الأرجنتيين في تراجع من العالم، حيث لا يستطيعون منافسة الدول الأخرى. وظلت قوانين التجارة الزراعية عبر العالم عالية. ومازالت الى يومنا هذا واحدة من الأشياء التي اثارت غضب زميلي في مائدة العشاء بدافوس . ولكن لم يكن لها أي تأثير كبير على سكان المدن. الذين يريدون من البضائع الا تخرج من الأرجنتين .

رفع البيرون سعر زيت الاخشاب بعد توليه كرسي الحكم بفترة قصيرة والذي يعتبر أحد المنتجات الزراعية المنافسة يشتريه المنتجين الأمريكيين لصناعة الطلاء ويشتكي المستوردون

الامريكان من ذلك، ولا يحرك البيرون ساكنا وقال : اذا أرادو زيت الاخشاب فليحضروا منازلهم الى الارجنتين بطلائها لهم، وعوضا عن ذلك قامت الولايات المتحدة بزراعته على أرضها وبذلك فقد الأرجنتين سوق مستوردة مهمة.

تحملت البيرونية كثيراً ومازالت تتحمل حيث تدعي الأرجنتين الحالية نفسها بالبيرونية كما فعل من سبقها والذي تصادف ان يكون زوجها . وبسبب ما يمكن أن نقول نجحت حكومة الارجنتين ولكن بطرقها الخاصة والمنقصة للحقائق لقد أدارت الحكومة المرافق الحيوية كالماء والكهرباء وكل الاشياء الاستراتيجية مثل الحديد والكيماويات ومصانع السيارات حيث قامت بقطع دابر المستوردات الاستهلاكية واستبدالها بأخرى وطنية وبديل المستورد . كان نصيب المنتجات في سبعينات القرن العشرين لتكلفة الانتاج المحلي(GDP) والتوظيف حوالي الثلث قريبا من الموجود بالولايات المتحدة واوروبا في الحقيقة لم يكن الانجاز مصرا بالطريقة التي بدأ بها وربما صنعت الارجنتين ولكن ماتزال تتقهقر الى الوراء وخلال فترة اندفاعها الزراعي في القرن العشرين، كان اقتصادها يناهض الدول الرائدة كالمملكة المتحدة. وخلال فترة تصنيعها تراجعت بنسبة 2% للفرد في السنة دون المعدل العالمي فكان دخل الفرد بالأرجنتين في عام 1950 يعادل دخل فردين في اسبانيا وهي مستعمرتها السابقة، وبحلول عام 1975 كان المعدل أعلى من معدل الارجنتين حيث كان الارجنتين اغنى بثلاث مرات من اليابان في خمسينيات القرن العشرين وتراجعت النسبة في بواكر الثمانينات من القرن العشرين وكان تدهورها تماما مثل فن العمارة الذي يضيع في وسط بيونيس ايريز يبدو رمزا معبرا فقط لو أن أحدا منا تجاهل المساكن البعيدة والكبيرة التي تحيط بالمدينة .

لم تسر الأرجنتين في نفس الطريق الذي تسير به امريكا لعملية التصنيع بدون قيود وحواجز واستمرت تفقد شركائها المنافسة في السوق العالمية وكما صمم البديل المستورد لإبعاد الارجنتين من اقتصادات العالم الاخرى وليس لشركاتها لكي تنافس فيه.

تعرف رسوم الاستيراد في المراحل الاولى للتصنيع بقانون الصناعات الناشئة ، وهذا القانون في امريكا حديث بالرغم من فرضه بعقود . اما الارجنتين فان الصناعات الناشئة تدرك منذ البداية انها لا يمكن أن تغادر الحضانة أو على أي حال فإن نُواحِهم يؤكد ان الباب سيكون مغلقا عليهم. تمت أرجنة الرأسمالية الامريكية وتحولت الى محسوبية ولعبة فساد حيث اصبحت قوانين الحماية والتصالح مع الحكومة ضرورية اكثر من التنافس ، وان تكلفة سيارات الارجنتين تساوي مرتين من تكلفتها بالولايات المتحدة وكثيرا ما تتعطل اما الغسالات والراديوهات كانت قبيحة الشكل باهظة الثمن ولا يمكن الاعتماد عليها.

بعد مدة من الزمن وضح جليا من دولة لدولة ان كل نماذج البديل المستورد به خلل كبير واقتصاديات بديل مستوردة تفرقعت وخمدت وبالرغم من مستورد البضائع الاستهلاكية تم قفله كان لابد من السماح للمواد الخام ومحتويات الانتاج الصناعي بالدخول وبأسعار تزيد بالضرائب خلال مرورها بالجمارك وبما أن الصادرات لم تعد مشجعة وغير منافسة لأسواق العالم بدون فروع الشركات الحكومية الكثيرة وهذا يعني أن الارجنتين مرة بعد مرة تدخل في مشاكل ميزان المدفوعات وكما فشل مصدروها في الحصول على الدولارات التي يحتاجها الاقتصاد لشراء الواردات .

لحقت التنمية السياسية للدولة بالتصنيع المكبل وخلع البيرون نفسه من الحكم في عام 1955 حيث تمكن من العودة لاحقا ولكن تجاه البيرونية . وكانت الحكومة تمر بعجز في ميزانيتها بسبب الصرف على الرفاهية الاجتماعية لعمال المدن والتي قام بها البيرون تصديقا

لوعوده وكانت الحكومة تطبع من النقد التخلص من المشكلة. وكما أضعف التضخم المرتفع قيمة الديون التي اقترضها المواطنون من الحكومة. وعندما انهار نظام برتيون وودز في بواكر السبعينيات من القرن العشرين من الولايات المتحدة كانت تكابد في جعل ميزانيتها متوازنة . وجاءت تركيبة الارجنتين المعروفة الي المقدمة وربما انها لم تعرف كيف تبني ولكن بخبرة ممتدة الى ازمة البارينجز في عام 1890 وما قبلها . وأكثر ما ادركوه هو كيف يقترضوا.

لم تبلُ أي دولة بلاءا حسنا في سبعينات القرن العشرين، عدا الدول النظيفة المصدرة للبترول – وحتى امريكا كانت لها أرقام مضاعفة من التضخم نتيجة لشروط التجارة التي تحولت ضد اقتصادها بجدية كبيرة في اتجاهها الى الجزيرة العربية. ولكن علي الأقل اصبحت دولة ذات رصيد دائن استطاعت ان تقرض بالدولار ومازالت تستطيع وهو احد مدخرات امريكا خلال الازمة المالية. شارفت مدينة نيويورك على الافلاس في عام 1975 ولكن انقذتها الحكومة الفيدرالية واهتز الشعور العام لمؤسسة ووتر قيت ولكن لم يحطم استقرار الجمهورية، ربما بدأ غيرارد وورد اكثر ثقة مما يشعر عندما حل محل ريتشارد نيكسون قال: ( وهذه حكومة القوانين وليس الرجال . وهنا قاعدة الناس) .. وكان محقا بصورة كبيرة .

قطعت الأرجنتين شوطا كبيرا في فقدان الثقة وفي الحقيقة هذا شيء مدهش وربما من غير المفيد اطلاق العنان للمقرضين لإعطاء بيونس إيرز مزيدا من الحبال لكي تخنق بها نفسها – وهذه هي الثقة الكبيرة التي تمت. وبالرغم من تاريخ الارجنتين المتقلب تعتبر مفضلة كثيرا من الدول النامية الاخرى. وبالنسبة للملاحظ العادي تبدو كدولة اوروبية جديرة بان يقطنها الحضر والمتعلمين. كما اعتاد القول بأن جمهورية ايرلندا قبل ازدياد نشاطها الاقتصادي كان للأرجنتين رصيد يعادل دولة هولندا باقتصاد دولة جامايكا .

كان هنالك تصور بان الارجنتين الدولة الاولى في العالم التي يمكن ان تنهار في سبعينات القرن العشرين . حيث ضرب ارتفاع اسعار البترول وتحريك الاسعار حتى الحكومات الثابتة فألقيت الارجنتين بتكرار على الصخور. وبين الفينة والاخرى على مدار السبعينات والثمانينات وتوعد الارجنتين ببداية جديدة وغالبا مع عملية جديدة فتفشل في كل مرة .

كانت فترة السبعينات من القرن العشرين بمثابة تحذير في الدول الغنية لتأخذ خطوات نحو ادارة الاسواق الحرة والسياسات لأن الثقة في الحكومات لقيادة الاقتصاد اختفت. وجدت فعليا في الولايات المتحدة الامريكية تعيين بول فولكر الرجل العقلاني كمدير للبنك المركزي الاحتياطي الفيدرالي فقام فولكر بحصر التضخم خارج الاقتصاد حتى لو كان على حساب ارتفاع البطالة فقد مرت الدول المتقدمة بإضرابات وشح في الجازولين ولكن استمرت واستقرت وانزلقت الارجنتين في الديكتاتورية العسكرية والتوترات السياسية بين المدنيين والحكام العسكريين وعددا كبيرا من التقليدين المحافظين الذين اعتقدوا ان الحركة البيرونية مثل الحركة الاجتماعية في راحة المواطنين – ووصل الامر الى انقلاب فرقة عسكرية كاملة في عام 1976 مثلما يقوم البيت الابيض بعملية التسليم والتسلم في جو امن ودستوري . ولكن بعد محاصرة جزر فوكلاند التي تمثل رمزا اكثر من أي جوانب اقتصادية من البريطانيين وبطريقة بها جرح للشعور اجبروا على التراجع . وانهارت الفرقة العسكرية وكما يقول المثل لسكان بيونس ايرز : أظهر الجنرالات انهم لا يستطيعون ادارة الاقتصاد واظهروا انهم لا يستطيعون تسيير الدولة واخيرا انهم لا يمكن ان ينتصروا في الحرب.

كان الناجحون منهم افضل قليلا وتلت فترة النجاح فترة الركود والكفاح ( العقد الضائع)، وتم عقد المكاتبات الاقتصادية وازال التضخم الكبير قيمة مدخلات السكان في غضون اشهر قليلة وليست فقط بالأرجنتين وانما بعدد من الدول اللاتينية التي اقرضت دون ارباح لدعم قرضها مثل

الولايات المتحدة. فالوعد ببداية جديده وعملة جديده بسبب الاسترال ومشاكله التي انتهت في عام 1985 بالأرجنتين – مرة اخرى كان التضخم يسري في العملة بمعدل 1000% في السنة . وكتب المؤلف الارجنتيني اوسفالدو سوريانو موضوعا في عام 1989 ولا شيء يذكر في هذا الزمن الذي قضاه لطباعة الموضوع، الا زيادة سعر السيجارة التي كانت بيده من 11 الي 14 استيرالات .

من المستثمرين القادمين الذين قضوا اعواما غارقين في المفاوضات مع حكومة الفساد الجنوبية ، هي مجموعة ريوقراندي وهي البنوك التجارية الامريكية مثل سيتي قروب والذين عولوا على الجزء الجنوبي لقارتهم مثلما فعلوا في الجزء الشمالي وكانت مطالب البنوك انها لا تريد ان تتعرض للفشل مره اخرى فقامت بتجزئة ديونها وباعتها لصناديق الاستثمار والافراد من المستثمرين.

وبكل أسف عندما حان موعد السداد تبين ان هؤلاء المستثمرين مُعرضين لمرحلة خداع أنفسهم ويتعاملون بأسلوب مقزز كما كانت البنوك وأعطوا عذرا جيدا. نهاية الاتحاد السوفيتي سطوة ووحشية ديكتاتوريات اليمين ضباط بقوتهم ضد الشيوعية ، وبذلك افسح عهد الضياع الطريق للعصر الذهبي .

في أواخر التسعينات من القرن العشرين صارت كثيرا من الاسواق في سوق واحد مثلما حدث في أواخر القرن التاسع عشر حيث كان العصر الذهبي دفعت التكنولوجيا العولمة للأمام وهذا عصر المعلومات والاتصالات أكثر من انه عصر السفن والسكك الحديد وكما حدث في العصر الذهبي واصبحت وسائل النقل اقل زمنا واكثر سرعة وضغط الانترنت للوقت ليصبح صفرا في نقل الارقام . كانتا الولايات المتحدة والارجنتين قائدتان للمسؤولية في العصر الذهبي وتعرضت

الولايات المتحدة لعواصف متقلبة بينما الأرجنتين التي كانت واعدة لهبوط بطولي استسلمت للانسياب الخطر.

هذه المرة تمثل عدم الاهتمام والتعالي في حكومة كارلوس مينيم وفيما يتعلق بالشهرة والطريقة لم يكن كليا بصورة الأرجنتين بالنسبة للرئيس الأمريكي بل كلنتون لمعظم تسعينات القرن العشرين فالاثنان كانا حكاما لولايات فقيرة ومنسية. وكان السبب الذي دفعهما للرئاسة تمتعهما بكاريزما عالية ووسامة حيث اختار مينيم اعضاء حكومة من التكنوقراط الموهوبين وكثيرا منهم تلقى تعليمه في الجامعات الامريكية كزملائهم في الولايات المتحدة الامريكية وصندوق النقد الدولي في إداراتهم. وبالرغم من أن مينيم من خلفية بيرونية الا أنه ظل بعيدا عن الاقتصاديين مقررا ان هنالك شيئا واحدا يمكن استيراده من امريكا وهو الثقة فقام بربط عملة البيسو الارجنتينية بالدولار وهذا يعني ان تبنى معدلات الربح الامريكية الموجودة في التبادل التجاري وتستطيع الارجنتين ان تقرض مثل امريكا فقط عندما تتعامل مثلها .

تعدّ هذه المرحلة خطيرة جدا لان الارجنتين تطبع فيها كيفما تشاء من العملة المحلية والان عليها ان تكتسب اقتصاد نسي كيف يصدر ومطلوب منها ان تتحكم في الانفاق العام . فالحكومة التي تنفق اكثر مما تدخل تكون في حاجة متزايدة الدولار لتنميه وتستفيد منه .

المطلوب من الارجنتين القيام بشيئين والتي كانت سيئة لكلاهما في الحقيقة تطلب منها ان توقف التمثيل مثل الارجنتين بعد مدة من الزمن بدأت تظهر نتائج ذلك حيث انخفض التضخم واستقر الاقتصاد تبعها برنامج خصخصة واسع النطاق وقام صندوق النقد الدولي بخطوة غير حكيمة وذلك بتحميس الارجنتين وجعلها نموذجا في خطوة بائسة لإيجاد نموذج عالمي بعرضه لبقية الدول النامية. وتمت دعوة الرئيس الأرجنتيني مينيم للاجتماع السنوي لصندوق النقد الدولي 1998 بواشنطن. وهو الرئيس الوحيد الذي نال شرف الدعوة من الرئيس المضيف بيل كلنتون

ومرة اخرى تثبت الارجنتين اندفاعها وانها افضل فقط في الاقتراض اكثر من الكسب وفي تسعينات القرن العشرين كان لها من السهل ان تقترض من العملات الصعبة كالدولار كما تدفقت الاموال بدول الاسواق الصاعدة وبعد عام 1998 ضرب نجاح الدول الاسيوية وروسيا بالأزمة المالية واصبح من الصعب لأي دولة سوقها صاعدة ان تطوي صفحة ديونها وباي حال من الاحوال لا يمكن ان يقارن جفاف رأس مال الاسواق الصاعدة بعد عام 1988 بجفاف الارصدة المالية في الحرب العالمية الاولى ولكن صدمة الحزن الدفين المنبعثة من المعضلة كفيلة بان تضع حمولات اكبر علي المراكب وتقييد حركتها.

بدأ المستثمرون بسحب الدولار خارج البلاد واقترضت الارجنتين كثيرا فكان للبيسوس أن يتراجع أيضا، اما في الدول التي تتحكم في عملاتها كالولايات المتحدة وخطورة هبوط الاقتصاد على مستوى العالم في عام 2001 يؤكد ان اقتصاد الولايات المتحدة يمر بفترة تراجع طفيف وسطحي بالرغم من النزول الكبير لأسعار اسهم الشركات التكنولوجية .

أدى شح الدولار في احتياطي الأرجنتين الى ارتفاع معدلات الفائدة بصورة كبيرة لأن الطلب يكون في حالة عرض محدود للعملة الصعبة وتمر الارجنتين بحالة خروج الروح وأن معدلات الفائدة العالمية الى سحق الأعمال. والبيوتات التجارية الفاسدة ـ وضاعفت بيونس اجرز أخطارها المالية وذلك باستدانة بلايين الدولارات من صندوق النقد الدولي آملة في إنقاذ اقتصادها من الغرق _ ولكنها فشلت في إقناع المستثمرين الذين تعتمد عليهم ، وفي ديسمبر عام 2001م ، قام صندوق النقد الدولي بوقف الإمداد ، وأدخلت الأرجنتين في أكبر حكومة للفساد في التاريخ .

انخفض دخل الفرد لقرابة الربع في غضون ثلاث سنوات ، ولم يكن للحكومة المركزية مالاً لتدفعه للمحافظات _ مثلما فعلت واشنطن في إنقاذ مدينة نيويورك في عام 1975م . وبدلاً عن ذلك ، بدأ البعض وبسرعة شديدة بطباعة عملتهم ، بصدى ضعيف للشغب المالي مثل الذي سبق

واستغلال أمريكا . وجاء للحكم خمسة رؤساء وذهبوا في غضون ساعات اسبوعين ، وأصبحت الدولة أضحوكة ، ومع احترامي وإن لم يخني التعبير ، أن السيد رودي دوز بيرش وهو اقتصادي بمعهد ماساشوتس للتكنولوجيا اقترح بكل خطورة أن المجموعات العالمية للخبراء تتولى وتدير مالية الأرجنتين . وكانت بعض الحسابات مجمدة وأخرى غير ذلك . وبعض الحسابات تم تغييرها قسراً من الدولار إلى عملة الأرجنتين المنهارة . اما الأثرياء فقاموا بالاحتفاظ بعملة الدولار في أصولهم _ ويمكن أن تكون المطاعم موجودة في وسط مدينة بيونس أبرز في منهاتن ، فقد امتلأت بطريقة لم تمتلئ مثلها من قبل .

لم يكن للأرجنتين القدرة على السيطرة على جوانبها المالية للمحافظات ، حيث كان بها قطاع تصدير صغير ومتعثر ، ويعتمد اقتصادها على أرباح زراعية متقلبة . وحتى أسرار وزرائها الأذكياء لم تمكنها من التخلص من مشكلاتها ، وفوق كل هذا وذاك ، هنالك شعور كبير بعدم استحقاقها للإنجازات التاريخية .

نظرة الأرجنتينيين لأنفسهم لم تكن صادقة في أن دولتهم من أساسها كانت أمة أوروبية قوية قوية ومتماسكة ، وضيقت على حافة شبه قارة متعطلة. وكان المنجذبين لفترة التسعينات من القؤن العشرين من البربريين ذوو اللون الأبيض المصفر والآلاف منهم لم يكونوا من المستثمرين الإيطاليين . كانت نظرتهم للدولة التي هاجر لها أجدادهم الأوائل منذ قرن مضى لم تكن للأسف في مكانها الصحيح . وكان المستثمرين الذين رفعوا دعاوى ضد حكومة الأرجنتين بمحاكم نيويورك ، مرتبكين ومستائين من دولة لها مؤهلات قوية لتكون الأمة الاولى عالمياً . لابد أن تفي بوعودها في سداد الديون .

يمكن للأشياء أن تسير في اتجاه مختلف في كثير من النقاط المختلفة على مدار القرنين الماضيين _ حيث يمكنها أن تنتهي بالمستثمرين البريطانيين وهم يرفعون دعوى ضد الولايات المتحدة بمحاكم بيونس إيرز ؛ أو كما فعلت أمريكا لواشنطن بعدما قامت باقتراض الإسترليني واليورو _ أي شيء آخر لتبقى بعيدة عن الإفلاس .

ما يزال في حقيقة الأمر حدوث ذلك ، ولم تكن الولايات المتحدة محصنة من الخداع وبأن كل شيئ على ما يرام ، وأنها تواصل الاقتراض خلال العصر الذهبي الثاني للعولمة . وعلى مدار التسعينات والألفينات من القرن العشريني والواحد وعشرين ، كان إقتصاد أمريكا يمر بعجز تجاري كبير ؛ ويسدد بالإقتراض من الخارج _ حيث تراجعت المبيعات المالية لتحضيرات الحرب العالمية الأولى . أما بقية العالم وتحديداً آسيا ، كانت تقرض الولايات المتحدة الأموال لتشتري الواردات ، وبالرغم من أن في هذه الحالة كانت وارداتها عبارة عن آيبودات وشاشات تلفزيونية مسطحة (Ipods and LCDTVS) أكثر من أنها بنادق أتوماتيكية وزي عسكري .

ولم يتم ذلك كلياً عن طريق الولايات المتحدة فقط، وإنما جاء من بقية العالم خصوصاً الحكومات الآسيوية دافعة المال دفعاً للولايات المتحدة بوجوده لبيع عملاتها وشراء الدولارات .

ولكن إدارة الرئيس جورج دبليو بوش عقدت المشكلة وذلك بالنظرة الدائمة للعجز الجاري كمصدر للقوة وليس للضعف .

وكان دليلاً قاطعاً ، كما قيل أن رغبة بقية دول العالم أن تسلف أمريكا ؛ وليس رغبة الولايات المتحدة المترددة بأن تدخر الأموال .

كان الاقتراض يتم تمويله محلياً من الولايات المتحدة مما أطلق شرارة الأزمة المالية . وكما أنتجت عقود تحرير التجارة طرق معقدة جداً للإقتراض والأصول المالية ؛ وحتى البنوك التي أنتجتهم وباعتهم _ لم تفهم ما الأشياء التي تقوم بها .

ذات الثقة الزائدة قادت بيونس دايزر إلى كارثة بعد كارثة بعد كارثة إلى أن توقعت . وأصبحت المدن معزولة كالشريرين _ وتم السماح لأرباح المدى القصير للبنوك والمؤسسات المالية الأخرى أن تتقوى على بقية الاقتصاد _ وسمح لفقاعة الأملاك أن تنتفخ بطريقة عبيطة ؛ وإمتدت العمولات للأشخاص الذين لهم تاريخ سيئ في الديون _ وهم الأرجنتينيون الذين يعملون في أسواق العقار الأمريكية . تلك القروض ولدت قروض أخرى ، وعندها تحولت العملات

لأصول مالية وتم بيها للمستثمرين الذين صدقوا أنهم بأمان كما كانوا عليه _ فإتقى التهور مع العقاب وإنفجرت الفقاعة .

عرضت هذه الأزمة الولايات المتحدة لأكبر تهديد لأنظمتها المالية والاقتصادية منذ فترة الكساد الكبرى. وهذا هو التحدي الذي سيستغرق سنوات لمجابهة هذه المشكلة ، وستفقد ثروتها المستقبلية في الثروة والسلطة، لو أنها فشلت في التعرف على هذه المشكلة وتصحيحها، كما اعتادت في مناسبات سابقة كيف تتعامل بتأني وألم شديدين. هنالك خراب كبير في الأمة وتحديداً الدولة المتعافية ومرنة التامل مثل أمريكا ؛ ولكن نهوضها لم يكن مكتوباً في الأزل ، ولا مكانتها السامية .

وفي ذات الأثناء ظلت الأرجنتين في تكوين إستجابتها للأزمة وتصور مألوف ، أعلنت أن الدولة لن تكون متأثرة ، ورأت حكومتها أن أنسب طريق للتعامل مع خسارة المستثمرين وكسب ثقتهم _ أن تقوم الدولة بحوافز خاصة ؛ وهكذا تأتي رواية أخرى لتلتف على مدار قرن من الزمان حول تاريخ حكومة الأرجنتين ، محاصرة مدخرات شعبها متى ما دخلت في مشكلة .

على كل ، يكون من الحكمة أن نربت على أكتاف الولايات المتحدة ، والتي فعلياً تجد الطريقة السليمة للتعامل مع الأزمة المالية _ بينما تواصل الأرجنتين إيذاء نفسها . ومن الآمال الكبيرة التي كانت تسود الجو الغربي في أواخر القرن التاسع عشر _ تحققت واحدة وبقيت الأخرى إلى القرن العشرين . وأنها كانت مسألة تاريخ وليست قدراً _ الذي يحدد كذا أصبحت كذا ؛ إنها تاريخ وفرصة اللذان يحددان ما تصير عليه الأشياء في قرن من الزمان .

## 2- المدن

### لماذا لم تنل مقاطعة واشنطن التصويت ؟

إن الدول التي تندفع من بداية بها عقبات، يمكن أن تسير في اتجاهات مختلفة جداً . وكدراسة أخرى في أوجه التشابه والاختلاف _ خذ مدينتين ، كل واحدة منهما تشبه الأخرى، ولكل منهما عاصمة جمهورية فخورة مع الرغبة في نشر حضارتها للخارج. تغلب عن مبانيها الحجارة

البيضاء اللامعة _ مع أعمدة وأشكال قبابية وصور حائطية ؛ إنها دور لمجموعة متعالية من السيناتورات ، وهي مركز عظيم لمتأثري الإمبريالية المسنودة بالقوة العسكرية الساحقة.

وبينما إحدى هاتين المدينتين كانت لها إستقرار لم يشهده العالم من قبل ؛ بها سكان مكسوري الخاطر ، يتلقون دعماً من رؤساء المدينة العصبيين . أما الأخرى فهي مدينة صغيرة وهادئة _ وهي الوحيدة التي دفعت مواطنيها الإدلاء بأصواتهم لممثلي المجلس التشريعي القومي .

فالأولى هي مدينة روما القديمة ، والثانية مقاطعة واشنطن الحديثة ، التي إعتمد معمارها على الأولى . وكانت واشنطن وهي عاصمة الديمقراطية الراسخة أكثر من أنها مكان لصفوة الإمبرياليين المتقلبة الآراء ؛ لذا كانت مختلفة تماماً عن أنموذجها الأول، لا تشكل المدن كما الدول بالقوة الإقتصادية الغير عاطفية أو الجغرافية ، بالرغم من أن لها تأثير كبير في ذلك ولكن تشكل بالخيارات التي تقوم بها حكوماتها وشعوبها .

أصبحت الأرض عبارة عن كوكب يسيطر عليه سكان الحضر _ ففي كل يوم يترك الريف في إتجاه المدن حوالي 180.000 ألف شخص حول العالم . أغلبية سكان العالم يعيشون في المدن الصغيرة والكبيرة . في ظاهرة هي الأولى في التاريخ ، لتاريخ غير معروف أفي 2007م أم 2008م _ وتصبح سلالات الإنسان جينات حضرية بسرعة متصاعدة ومدهشة . إستقطبت المدن حوالي ثلثي النمو السكاني العالمي منذ عام 1950م _ حيث إستغرق التعداد السكاني لمدينة لندن مئة وثلاثون عاماً ليزيد من واحد مليون الى ثمانية مليون نسمة. بينما إستغرقت بانكوك بتايلاند، خمسة وأربعون عاماً ، داكار في بنغلاديش سبعة وثلاثون عاماً، سيول في كوريا الجنوبية خمسة وعشرون عاماً فقط. وكانت لندن في عام 1910م أكثر بسبعة مرات مما كانت عليه في عام 1800م، ولكن داكا الآن أكبر بأربعين مرة مما كانت عليه في عام 1950م يمكن للمدن أن تكون المستقبل لولا التغيرات الكارثية الغير مسبوقة في سلسلة التاريخ . ولكن ليست كل المدن ، الصغيرة منها والكبيرة تبدو متشابهة _ كما أن الدول تسعى للتحضر بصورة جيدة وأخرى غير ذلك، والبعض منها لأسباب صحيحة والبعض لأسباب غير صحيحة. وبصورة منتظمة أصبحت بعض المدن كبيرة جداً، بينما ظلت أخرى صغيرة للغاية _

ويحدث ذلك في نفس الدولة أحياناً. والسبب وراء الإستقرار الكبير والسعي وراء تحقيقه ، هو التقارب اللامحدود للزمن والتكنولوجيا. ولكن ليست التكنولوجيا وحدها صاحبة التغير، ولكن شكل المدن وطريقة تسييرها تعتمد علي الإستقلال الأمثل للخيارات التي تتخذها، والدول التي تقع بها .

كانت مدينة روما مركزاً لأقوى الحضارات في التاريخ .ولكن كمدينة تبين بصورة واضحة التدفق في المعرفة التي أدارتها. وكانت الامبراطورية الرومانية عبارة عن نظام عسكري مسيطر، يزود نفسه بأخذ وسلب ضرائب بالقوة من المهزومين. فتحولت إلى ماكينة واسعة تجمع الإيجارات _ حيث أنها قابلة للتوسع والطمع والسقوط والانهيار .

تحركت الجمهورية الرومانية لتصبح إمبراطورية خلال الاعوام مائة وثلاثين إلى مائة وخمسين قبل الميلاد (BC). وإمتدت إلى منطقه الجول (GAUL)، وأكثر إلى آسيا الشرقية _ وحتى أنها قامت بمحاولة لغزو بريطانيا. حيث أصبحت روما أكبر وأغنى عبر التركيبة الانانية أكثر من الجودة الاقتصادية أو تكنولوجيا التجارة ، ولم تكن لها الدور بأنها المركز التجاري المسؤول بصورة أساسية عن توسع المدينة الامبريالية . وأصبحت كل الاراضي المسيطر عليها أملاك لمدينة روما _ حيث كل الطرق تؤدي إلى هنالك؛ وفى الأساس أنه يمكن لمدينة واحدة أن تنزع إيجارات من نصف سكان العالم المتحضر. بصورة واضحة ودقيقة ، أصبحت روما مدينة للمستأجرين الأنانين والبيروقراطيين والمتطفلين _ بالإضافة إلى أنها مركز للتجارة والصناعة. وما بين الاعوام من مائة وثلاثون إلى مائة وخمسون قبل الميلاد (BC)، زاد عدد سكان روما إلى معدل مدهش، من ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألفاً إلى حوالى المليون ؛ وأصبح أكبر بمرتين من قبل في تاريخ الانسان . ولم تتمكن أى مدينة أن تصل إلى مليون نسمة مرة ثانية _ حتى استطاعت لندن خلال الثورة الصناعية، وذلك بعد ثمانية عشر قرناً .

أي رأس مال إمبريالي منوط بالنمو، ولكن ليس بالصورة التي قامت بها روما؛ التي كان نموها خارج النطاق السياسي وكانت في هذه الحقبة التاريخ تهديداً للإمبراطورية الرومانية من مكان قريبة من المدينة _ وكانت ممتلكاتها الفرعية المنتشرة في الاطراف أقل عرضة للخطر

من الاماكن التي في الوسط  إما قريبا من الاماكن البسيطة، كان التهديد يأتي بصورة متكررة من المعارضين الايطاليين الذين أجبروا السلطة أن تمد لهم الجنسية الايطالية لكل الايطاليين .

امتدت العادة التقليدية لتوزيع الحبوب لسكان روما ، لتشمل عدداً كبيراً من المواطنين الرومانيين؛ ونتيجة لذلك أصبحت هنالك مشاحنات جعلت من الريف والمناطق الزراعية غير آمنة؛ وأن الحكومة فى روما لا يمكنها أن تجهز سلسلة مطابخ الحساء لكل إيطاليا _ ووزعت الحبوب فقط للذين يأتون إلى روما لاستلامها .

يمكن لأى خبير إقتصادى أن يتنبأ بما تؤول إليه الحال بدقة شديدة _ وحشود من الرومانيين يلتفون حول المدينة يطلبون الرفاهية . وبحلول عام 46 ق.م ، كان هنالك ثلاثمائة وعشرين ألف شخص؛ يمثلون الثلث من سكان روما تقريباً، يتلقون الحبوب. وإنتشرت البطالة بصورة واسعة _ وأصبحت المدينة بشكل مخيف ، حيث الآلاف من المواطنين يتجولون للاشيئ وينظرون لكل حاجة بتجاهل. ولكي تشغل الحكومة هؤلاء المواطنين وحتى لا يتسببوا في المشاكل _ بنت أستادا كبير جداً ومكلف، ونظمت برامج المصارعة البدائية للانسان والحيوان وكان هنالك أكثر من عرض إسبوعياً .

ولو أننا تخيلنا المدينة اليوم، أنها تتطوع بتنظيم مستمر وغير محدود للألعاب الأولمبية.

وجاء من جراء ذلك الرشاوى التي كانت تعطى للمواطنين الغير مرتاحين، وهي عبارة عن خبز وألعاب سيرك، وكانت تدفع بسخاء شديد للمحافظات التي ليست لها القدرة على تهديد الحكام، والذي يتم أخذ الضريبة منهم بواسطة الجيش الروماني، (كانت المحافظات تمدهم بأغلب المصارعين والحيوانات) . ويتم استغلال الأرياف بالضرائب لدفعها للحكومة في المركز. أما بالنسبة للمواطنين الذين يحومون حول المدينة ليس لهم أي فوائد _ كحصولهم على خبز لحياتهم أو تذاكر موسمية لحضور عرض مصارعة في أيام السبت من كل أسبوع .

جاء إلى السلطة يوليوس قيصر في عام تسعة وأربعون قبل الميلاد وتغيرت الأوامر الحكومية والتغيرات والسياسات؛ واستطاع أن يرتب الريف الإيطالي _ وتطبيق دراسة الحالة في توزيع

الحبوب. واستجابة لذلك انخفض نمو المدينة السكاني، ولكن ضعف الرغبة بتركها ظل هاجساً في تسيير الإمبراطورية .

ظهرت في فترة العصور الوسطى مدن إيطالية لا تقل نجاحاً عن روما، مثل مدينتي البندقية وفلورنسيا، اللتين كانتا مختلفتين من حيث الخصائص عن روما؛ حيث كانتا تعتمدان على الحذق والمهارات أكثر من التمكين والسيطرة _ جنباً إلى جنب لمدن مشابهة لها في الجزء الشمالي الحديث لأوروبا مبكراً، مثل مدينتي أنتيوارب وأمستردام، وذلك في الاستقرار الذي يسودهما كميناءين تجاريين في كل المنطقة .

ازدهرت مدينة البندقية والتي كانت ثالث أكبر المدن في أوروبا في العام 1330م، وذلك لتزويدها الخدمات التجارية للناس حول منطقة البحر الأبيض المتوسط. وبرزت مدينة البندقية ومدن إيطالية أخرى بأدوات الرأسمالية الحديثة، كالصرافة والعقود المالية والأرصدة التجارية لتطمين البائعين ضد رافضي الدفع، وتشجيع أسعار البيع لتثبيت الأسعار لفترة شهور من موعد التوصيل وحث الأفراد لإقراض السلطات العامة. أصبحت مدينة فلورنسيا بمثابة مصرف لكثير من دول أوروبا وكما عملتها الفلورين المعدنية الذهبية عملة مضاربة للتجارة العالمية. ومثل تلك الدول معتمدة على قدرتها في تنظيم أعمال تجارية لأي إقتصاد من خلال التجارة أو عبر التفاهم. وكانت تجارتها في السلع والخدمات والأموال بالإنابة عن الأخريات؛ ولكي يستمروا في هذه الطريقة كان لابد لهم من بيع قدراتهم وخبراتهم للآخرين .

ما هو هدف المدن في نهاية المطاف؟ . كان تركيز الناس في المدن اتجاه سائد منذ قرون، ويتبع الهرم الاقتصادي للاحتياجات، حيث يأتي الغذاء ثم المأوى والملبس _ والتي يمكن أن يتم توفيرها في الريف والذي بدأ بالصيد وبعده الجمع والزراعة . ولما أصبحت الزراعة تفي بالحاجة المعيشية الذاتية؛ وبمرور الزمن ظهرت الملبوسات والمواد والأدوات التي يقوم بها غير المزارعين من الحرفيين وغيرهم أو المزارعين أنفسهم في أوقات فراغهم .

وليس بالضرورة أو الأساس أن يعيش المزارعين في تجمعت أكبر، وذلك على أقل تقدير . فقد كانت الحرف لمستوى إنتاج الأفراد والتي تمثل في الأنوال اليدوية وصناعة الأخشاب . واستطاع سكان الريف أن يذهبوا إلى أبعد من الزراعة، إلى ما يعرف بـ"صناعة العربة الخشبية" والتي يستطيعون تحقيقها دون منزل متحرك . ولأن البشر كائنات اجتماعية، وحتى دون الانتقال إلى المدن، فإن المدن مراكز للتجارة حيث يؤتى إليها بالغذاء والبضائع _ مما أدى إلى ظهورها وتوسعها عبر الأسواق والتجارة ووسائل النقل، وإن لم تكن بالإنتاج . وكان حجم سكان المدن في وسط أوروبا في النصف الأول من الألفية الثانية مؤشراً جيداً للرفاهية العامة .

وهذه العملية قلما تظل ثابتة، بل تتصاعد بمجرد تحول الاقتصادات إلى الإنتاج الصناعي . تأتي الأموال لدفع التصنيع لإنتاج زراعي أكبر؛ مما يؤدي إلى التوسع الزراعي ومزارع أكثر فاعلية بعدد قليل من المزارعين . وعندما أحكمت الثورة الصناعية قبضتها، تطلبت المصانع عمالة كبيرة ومركزة، وزادت الحاجة إلى حركة المواصلات؛ واندفع الناس من الريف إلى المدن بدخول الآلات الزراعية، وانجذبوا نحو الوظائف والمستقبل؛ وهكذا تمددت إقتصادات الريف .

لابد للإنسان المتمدن أن يتقيد بمواكبة السياسات والفلسفة واللغة والثقافة، بالإضافة إلى الاقتصاد كما قال الفيلسوف ريني ديسارتيس عن مدينة أمستردام في عام 1631م، أن المدن عبارة عن( مخزون الممكن ). جاء في المثل الألماني القديم STATTLUFT MACHT FREI "يجعلك هواء المدينة حراً" بالرغم من أن البضائع التي يتاجر بها سكان المدن بالرغم من سمعتها إحدى مستثمراتها أو صنعها الرقيق _ فإن ضرورة الأعمال التجارية المنتظمة للمدينة كانت الحرية في الاعتقاد والتنقل والفعل _ ولكن الحريات التي تنال في المدن غالباً ما تكون نذر شؤم، يأتي يوماً ليعم الناس .

بدأت في الانتشار أفكار خطيرة عن بني البشر، في فترة بازدهار الفنون في أوروبا _ أن الناس عليهم بحث الحقيقة والأخلاق في أنفسهم وليس تلقيهم لها لوجود سامي أو عن طريق ممثليه على الأرض . وعندما شعر أحد سكان محافظة فلاندرز الشمالية بالخطأ، وحاول المطالبة بحقوق أحد الرقيق والذي وجده في السوق بمدينة بروقيس، وهي إحدى المدن التي

إزدهرت جنباً إلى جنب مع أمستردام _ قام التجار من الطبقة الوسطى والذين يديرون البلدية بإخراجه من المدينة .

كما أن المدن أسرع نمواً وثراءً وصعوبة في التعامل مع الأرياف فهي ليست آمنة ولا نظيفة وأكثر عنفاً ووحشية . لم تكن روما أو البندقية المركز الإقتصادي وإنما مدينة ميلان التي كانت صناعية ثم العاصمة الإقتصادية ونهضت المدينة بفن التلوين في عام 1910م عن طريق البيرتو بوسييني: وهو المدرسة المستقبلية للفن الايطالي، حيث تحولت صدمة التمدن إلى إرتباك عنيف للإبتكار نفسه .

إنتقل التلوين من الأشكال التعبيرية المنقوطة إلى الأشكال التعبيرية المتأثرة بالحركة والدراما؛ وكانت تلك هي النقطة المحورية لبوسيني .

وفي مدينة ميلان حيث المصانع والمباني ذات السلالم والقوى العاملة والخيول _ استطاعت أن تبتلع كل ذلك الصخب لتصبح هذه الأشياء قائدة لها نحو المستقبل .

إن الخير والشر يمكن أن يحددهما الناس والحكومات؛ والتاريخ يمدنا بنماذج لمدن ناجحة وأخرى فاشلة _ والأوزة الحضرية التي تقتل من أجل بيضها الذهبي أو التي تجبر بعنف لإخراج البيض مما يجعلها تتوقف عن الإنتاج .

لم تكن مدينة البندقية مثل روما، فقد تجنب المستولين وبخلاء الشوارع ولكنها استسلمت لبخلاء الإمبريالية الذين يأتون من الخارج أكثر من الداخل _ وتدهورت الجمهورية بسبب استهدافها من المهاجمين الأسبان والفرنسيين والإمبراطورية العثمانية . حدثت أقدار مشابهة لمدن الجنوب الأوروبي المزدهرة التي نمت في فترة سقوط روما ونهوض البندقية . وكانت مراكز تجارية ظهرت تحت حضارة الصراصين والموريس . وهي حضارة العرب المسلمين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط وكانت مدينة قرطبة أكبر مدينة في أوروبا في القرن الحادي عشر، والآن بما تعرف بالجزء الشمالي لإسبانيا، وبعدد سكان يقدر بأربعمائة وخمسين ألف نسمة، وكانت لندن خمسة وعشرون ألف نسمة، وباريس عشرون ألف نسمة .

سيرت حضارتي الصراصين والموريس إمبراطوريات تجارية مفتوحة وواسعة، ولكن دفعوا إلى الوراء لمناطق شمال إفريقيا والشرق الأوسط في القرون الأولى من الألفية الثانية .

آلت القوة لممالك الحكم في وسط أوروبا ، وكانت رغبتها في تفريغ المدن وإهمالها أكثر من الاهتمام بها .

تمت عملية تحصيل الضرائب من تجارة المدن، والتي تكون متركزة وبالنقد الاقتصادي أكثر من المناطق الريفية وتجارتها المتفرقة، والتي كثيراً ما تدخل في قروض في هذه المرحلة من التاريخ والمدن هي مركز النمو الذي يدعم المراكز التجارية والتخصصات مما يجعلها تساهم في التنمية بشكل فاعل . لذا فإن الأماكن التي تتعدى الاهتمام وتعتمد على الطلبات يمكن أن تتخلف .

غزا وأسس أخوة دوهاتفيل من مملكة االنورماندي على سبيل المثال مدينة رئيسية شمال إيطاليا في القرن الحادي عشر، وبعد مملكة سيسيليا التي استمرت لقرن من الزمان، إستولوا على باليرموا من أيدي الصراصين في عام 1071م.

وبمقاييس القرن الحادي عشر، فإن مملكة الهوتوفيل، كانت متماسكة وقوية _ وفرضت ضريبة عائد الممتلكات لتزود بها العمليات العسكرية . وتقلص تعداد سكان باليرمو بنسبة الثلثين تقريباً بحلول عام 1200م .

حدت بطريقة شبيهة لمدينة قرطبة عاصمة المورز وهي المركز التجاري لهم _ أن وصل عدد سكانها في القرن الحادي عشر وفقاً لبعض التقديرات إلى عدد لم تشهده أي مدينة أوروبية حتى القرن السابع عشر. ودخلت مدينة المورز في مشاكل ونضالات داخلية أضعفتها _ وخضعت للغزو المسيحي ، وتمت إعادة السيطرة عليها من الناحية الشمالية ، وتضاءلت مدنها . واكتملت المهمة باستيلاء إمبراطورية هاسبيرج على شمال إسبانيا، وفرضها ضريبة لتمويل الحرب ضد الفرنسيين وغيرهم _ وتقلصت مدينة قرطبة بسبع مرات عن حجمها السابق .

إن للحكومات والشعوب دور كبير في تشكيل المدن وكيفية نمو سكانها وتنميتها . فمنها من تطورت بصورة غير عادية في التحضر رغم أن بعض الحكومات سعت في عدم تشجيع الهجرة من الريف إلى المدينة _ إلا أنها لا تستطيع أن تعترض مسار التاريخ .

من السهولة واليسر أن يجد المؤرخ المقارن في اختياره لأيسلندا نموذجاً متقدماً للمدينة المعاصرة _ التي قدمت ثلاثة أمثلة في مسيرتها، وهي الاهتمام والتهور والوحشية .

ككثير من دول أوروبا الغربية، كانت إنجلترا قد أنتجت فائض كبير في الزراعة في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر _ حتى استطاعت التوسع في الزراعة من النطاق الصغير الصغير إلى طرق فعالة بإقامة مزارع ضخمة . أما الأراضي الزراعية البور والمزارع المكشوفة، حيث الفلاحين الأفراد لإعداد أماكن زراعية بالشراكة مع الحكومة أخذ قروناً عديدة . وإستجابة لمطالب المتظاهرين القرويين وأحياناً المعارضين وتحذيرات الكنائس _ قلل حكام أسرة ثيودور العملية بإصدار سلسلة قوانين لإمتصاص غضب المتظاهرين . العملية بإصدار سلسلة قوانين لإمتصاص غضب المتظاهرين . وبعد مدة من الزمن أنتقل عدداً كبيراً من سكان الريف إلى المدن، عندما وفر لها التضيع فرص عمل جيد في مصانع النسيج وما شابهها . وهكذا كان التغيير في إنجلترا تدريجياً وبنفس القدر مؤلماً .

لم يعر الملك وأصحاب الأراضي أي إهتمام لصغار مزارعيهم في أسكتلندا؛ وفي عام 1745مم هزمت جيوش الملك قوات المعارضة والجاكوبايت، التي حاولت تنصيب شارلس إدوارد إستيوارت، الكاثوليكي الأسكتلندي (كثيراً ما يعرف بالأمير شارلي الجذاب والمشبث الصغير)، على كرسي الحكم الإنجليزي . وبعد ذلك قام الملك بالقضاء على أي فكرة أو إشارة معارضة في إسكتلندا _ وفي نفس الوقت حث ملاك الأراضي بالاهتمام بمدينة لندن وأنفسهم وأن يعيروا اهتمام قليل لمزارعيهم . حدث التغيير سريعاً عندما تم تحويل المناطق الصغيرة والمتفرقة إلى مزارع كبيرة للأغنام والأبقار؛ وكانت المحصلة هي إزالة الأراضي المنخفضة والعالية، وإخراج الفلاحين بالقوة لتمهيد الطريق لإقامة مزارع ضخمة ومنتجة، وكان ذلك في القرن الثامن عشر

بدون أي حكام أقوياء يقفون في طريقها . فحملت المدن الأسكتلندية الكبيرة مثل غلاسفو وإدنبرة فوق طاقتها بالاجئين الفقراء .

وإختلفت المسألة إختلافاً كبيراً في إيرلندا فيما يخص الجزء الحكومي والحكام المحليين _ حيث أن كثيراً من أصحاب الأراض من البيزنطيين الإنجليز والبعيدين في تركيبتهم الجسمانية والدينية والإجتماعية عن المستأجرين الكاثوليك . وتم التغيير بطريقة أشبه بالإبادة الجماعية _ حيث المجاعة التي تلت موسم البطاطا الكارثي؛ وتم طرد المزارعين من الأراضي في منتصف القرن التاسع عشر . ونجا إثنين مليون من الفلاحين الإيرلنديين من مجموع تسعة مليون نسمة _ وهاجروا إلى مدن بعيدة مثل ليفربول وبوسطن ونيويورك .

يكون التحضر بطرق سليمة وآمنة لو كانت هنالك نسب عالية في معدلات إستقطاب المدن ودفع الأرياف إليها . وهذه الدروس في كيفية التمدن ظلت تتابع بالعقود والقرون والسنين والشهور . والنمو الذي يتم في مدة قرن في مدن مثل مدينة لندن _ يستغرق مدة الربع فقط في مدن آسيا السريعة النمو؛ والوقت يسير في تقلص، وربما تقل المدة أكثر من ذلك مستقبلاً .

أصبحت الأخطاء سريعة بصورة واضحة وجلية؛ وأسهمت التكنولوجيا في تحديد نطاق الوقت لمسألة التمدن فليس على مدن كبيرة بالصين أن تنتظر _ كما فعلت لندن في إقتراعها لماكينة البخار والطرق الجيدة لصهر الحديد . قرن من الزمان لبداية صناعة التكنولوجيا، من غير ذكر ملايين الدولارات للمستثمرين، في إنتظار أي دولة لتنقلها من مرحلة الزراعة الإقطاعية إلى مرحلة النمو .

إلى يومنا هذا هنالك دليل لخبرات متفرقة في كل من إنجلترا وأسكتلندا وإيرلندا . وتبلي شنقهاي بلاءاً حسناً عن مومباي أو لاغوس .

يتوجه الريفيون الصينيون إلى المدن، مدركين أي وظيفة بغض النظر عن عائدها، هي أفضل لهم من حياة المزرعة _ حيث تقوم الحكومة بتنظيم وتعليل هجراتهم . أما المهاجرين الجدد في المدن، أقامت لهم خطط في المراكز التي يتفرقون إليها . وأما في الهند، فقد تدفق فيضان من

المهاجرين الريفيين إلى المدن هرباً من الجفاف وفشل المحاصيل في قرى مهاراتشدا وجوغرات إلى مومباي . فأصبح نصف سكانها يعيشون في أماكن عشوائية، تفتقر للمياه والكهرباء، دون أي مسؤول أو أمن لبيوتهم .

إن مسألة السماح لأعداد ضخمة من المهاجرين إلى المدن من دون إعداد أو دراسة، يكون له نتائج عكسية. ففي كثير من الدول الفقيرة، هذا هو الحال _ الذي يحدث خلخلة في مدن كوكب الأرض _ وذلك لم يأت من عدم تحقيق رغبات البشر فقط، وإنما الاستماع للصرخات المهددة .

لم تكن رغبة الأرجنتينيين في التصنيع غريبة _ فإن الدول النامية خلال القرن العشرين والتي نزعت لجام المستعمر، ترغب فيما حرمها نظام التجارة الإمبريالية القيام به؛ وهو بناء الصناعة أكثر من الاعتماد على واردات الدول الأوروبية المستعمرة . واعتمدت في تمويلها من عائدات الضرائب وجعلت أسعار البضائع المستوردة عالياً وذلك بفرض رسوم عليها .

ليس التأثير في سياسات تغيير الأسعار نحو الصناعة تصحيح للموازنات في التنافس بين المنتجين الوطنيين وبين الوحوش التي تترصد للاقتصاد العالمي _ فهي أيضاً غيرت الأسعار بين المدن والريف . وتاريخياً تحتاج الصناعة للزراعة من أجل الاستثمار الذي يأتي من فائض الأرباح؛ ولكن بمجرد أن تطول فترة اعتمادها على ذلك تجد أن أرباحها كبيرة مقارنة بأرباح المزارعين . وكانت لحظة بريطانيا الصناعية التاريخية هي ظهور قوانين الذرة الشامية والتي شكل حماية لملاك الأراضي ورفعت سعر الغذاء . كما سنرى لاحقاً أن ذلك لم يساعد الطبقة العاملة المستهلكة وحدها، والتي يمثل لها الغذاء ميزانية كبيرة، ولكن أيضاً المنتجون الذين يخفضون الأجور دون التأثير لعائدات موظفيهم الحقيقية .

خطت الدولة النامية إلى الأمام في كثير من الحالات، ولم تسحب البساط من تحت الزراعة وعائداتها، ولكن حاولت وضع سقف لها . أصبح التحكم في أسعار الغذاء سلاح مستخدم في المعركة، لتشجيع تحويل المزرعة إلى مصنع . ولكن تكمن المشكلة في الدوافع الهلامية

لإقتصاد الأرجنتين الكئيب والذي يهتم بالمظهر أكثر من الجوهر . إن عملية تغيير الأسعار المقارنة يخلق دفعة كافية إلى الأمام، ولكن اتضح أنه أقل في تكوين حركة سليمة .

لمدة تستغرق ساعة بالطائرة من لوساكا، عاصمة زامبيا، الدولة الجنوب إفريقية حيث "حزام النحاس" _ والتي تعتبر ثاني أكبر مخزون للمعدن في العالم . وظهور مصادرها مصادر للسلع مثل النحاس، تعرض توازن الإقتصاد للخطر؛ كما سنرى لاحقاً عندما تخطى أي دولة بمصدر يعود بالمال مثل البترول أو المعادن الأخرى .

جاء رئيس زامبيا الأول، كينيث كاوندا بعد الإستقلال من بريطانيا في عام 1964م _ ليجعل الأشياء أسوأ . فقد كان يؤمن بالنظر الإفريقي بأن زامبيا تحتاج لبناء قاعدة صناعية؛ ويجب أن تستخدم الضرائب والرسوم لتشجيع ذلك . وهذا يعني أن الأخطار الطبيعية من امتلاك موارد طبيعية، مصحوبة بسياسة قرار سيئة؛ كما نجد ذلك في حالة زامبيا وغيرها من الدول الإفريقية . وبتأثير كبير تدفع أموال ضرائب الريف إلى المدن _ وبصرامة شديدة تتحكم في أسعار الغذاء؛ وكانت شركات الأعمال الصغيرة أيضاً تمول الصناعة، ولأن معدني النحاس وصناعتهم، كانت لهم قوة سياسية ويعاملون معاملة مميزة .

تم توطين مناجم النحاس من الشركة الأنجلوأمريكية الخاصة ومنحاها لشركات قوية، ودفع أموال جيدة للمنجمين .

يتفاعل الناس بصورة عامة على ما تقدمه لهم من دافع كبير للقيام بالأشياء . وعندما هبطت أسعار الغذاء بصورة مفترة للمزارعين في بيع فائض إنتاجهم _ حدثت هجرات كبيرة من الريف الزامبي إلى المدن. فانتشرت المساكن العشوائية، (أو كما تم تكرارها مع تطور اللغة العالمي بأنها "مستوطنات حول المدن") _ والتي أصبحت شيئاً مألوفاً للمدن الإفريقية، حيث يتكرر خطأ السياسة مرات عديدة . ولكن بإستثناء جنوب إفريقيا حيث التباين بين الأرض ذات الصخور الصلبة لوسط جوهاسبيرج وإنتشار سويتو الواسع، يعكس تاريخ الفصل العنصري؛ وهناك مدن قليلة تغلبت على الشكل الرسمي وغير الرسمي في منطقة حزام النحاس الزامبية .

تعتبر مدينة نولا (ndola)، أكبر مستوطنة في منطقة حزام النحاس؛ واليوم هي عبارة عن مدينة للشريك المستعمر فهي صغيرة ونظيفة وتتكون من مجموعة مرابيع ذات منازل من طابق عادي، وبها مساحات خضراء _ يغطي مركزها منازل عشوائية من الطين والقش؛ وأحياناً الطوب . ويقطنها مليون ونصف من البؤساء والفقراء الزامبيين . ويقضي سكانها أوقاتهم كمنجمين؛ ويعاملون بشراسة لنيل الطعام والصابون الرخيص والملابس والألعاب البلاستيكية _ وفي هذه الظروف يحصلون على جنس رخيص من المراهقات . وأنا أاجول لساعات داخل الريف، كانت بالطرق مياه وطين وخالية بصورة كبيرة .

يبدو أن الدولة في أوكاوندا نفسه غير واعين بما يجري من سياسا ته التي تدمر الاقتصاد . وكان كاوندا رجل سياسي له القدرة على التفكير السليم ووضع الخطط؛ ولكنه بعيد كل البعد عن القادة والزعماء الأفارقة الذين سبقوا الإستقلال . ولا يعي بخطر التمدن البالغ السرعة . وفي كل مرة والأخرى يذكر الرئيس كاوندا هذا الأمر خلال سبعينيات القرن العشرين والتي كانت بها أسعار المعادن عالية _ وحملات التصنيع تستقطب آلاف الريفيين إلى المدن كل شهر . فقام كاوندا بتدشين ( حملة العودة إلى الزراعة )، لكي يسيطر على التدفق البشري إلى المدن؛ ولكن الحض والتشجيع غير كافيين لإبطال أثر الدواعي الإقتصادية الصعبة _ وعندما تأتي المسألة لتغيير السياسة الفعلية للغلب الحوجة والمطلب الأيدولوجية والسياسي للتصنيع والتمدن على غيرها .

أصبح مألوفاً في إفريقيا، وجود سكاني حضري كبير بدون عملية تصنيع كبيرة . وبعد مدة من الوقت لم تستطع القارة الافريقية أن تبنى مدن بصورة جيدة . غادر سكان الريف أماكنهم دون زيادة في الإنتاجية الزراعية _ كما يحدث في سمات المناطق التي يهاجر سكانها من الريف إلى المدن في الدول الأوروبية وشمال أمريكا . ولذلك لم يكن هناك أي فائض في الدخل لإستثماره في عملية التصنيع _ وكما لم يخلق استلاف أموال الدول الخارجية الكبير وجود تنمية سليمة . وليس هنالك فرص كافية للعمل بالمصانع لكي يشغلوها _ وحتى الفرص التي كنت

موجودة لم تنجيهم من إزالة الرسوم في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين؛ والتي كانت تشكل لهم حماية من المنافسة الخارجية، بالإضافة إلى أن التحكم في أسعار الغذاء يعني قلته .

عندما قاد إفلاس الاقتصادات الإفريقية إلى داخل أذرع صندوق النقد الدولي والبنك العالمي (WB) _ حاولت التوأم أن تغير فكرة المنحازين للتمدن. وكثيراً ما يصاحب برنامج التسليف من أجل التنمية بعصيان مدني، ويتذمر سكان المدن ويرفضون بغضب شديد ويعتبرون ذلك نزعاً لحقوقهم، مما ينتج عنه إرتفاع أسعار الغذاء .

من الصعب تغيير المدينة المصطنعة، وحتى محاولة القيام بذلك تتطلب تدخل طرف من الخارج بتأثير كبير كصندوق النقد الدولي (عملياً قطعت هذه المسألة شوطاً كبيراً لمستوى المدينة والريف داخل الملعب) . ووضح جلياً لأي مراقب متابع بعين فاحصة أن المدن أخذت مطالبها الإقتصادية لتعزيز موقعها السياسي . وفي مثل هذه الحالة، كثيراً ما يصاحبها عدم استقرار الحكومات، والتعامل بتعصب، وتعرضها للاضطراب والتظاهر وخصوصاً عواصم تلك الدول التي تضرب بقوة، نسبة لثقلها السياسي .

عند تداول الملوك الثلاثة، وهم شارلس الأول ملك إنجلترا، لويس الثالث ملك فرنسا، وسارنيكولاس الثاني لروسيا للسلطة، أدركوا كيف يتعاملون مع الرافضين والمعارضين لحكمهم خارج عواصمهم، وتلقى شكاويهم من خلال زيارتهم في أماكنهم البعيدة ومعرفة أحوالهم المعيشية الشخصية في حياتهم الزراعية البسيطة .

تختلف الحالة فيما يتعلق بالمتضجرين من السلطة في دولة ديموقراطية في فرنسا _ ولمدى أقل في الأوتوقراطية القوية كالصين، حيث لكل فرد حق التصويت أو القدرة على التظلم في وجه السلطة المتفاخرة . وعلى النقيض من ذلك، فإن الأنظمة المسؤولة في إنتشار العنف المعرضة للضغط السياسي _ ويكون الإختلاف كبيراً . أما في الدول الديموقراطية فإن نسبة ثلاثة وعشرون من السكان يعيشون في العاصمة، وفي الأنظمة الديكتاتورية المتزعزعة مع تاريخ حافل بالإنقلابات العسكرية والثورات، فإن نسبة من يعيشون في العاصمة هي سبعة

وثلاثين في المائة . أما المدن التي بها فوارق في الإعتبارات تختلف عن المدن الأخرى في الدولة، يصبح إتجاه الحكومة لتقوية مواقفهم، وتزيد هجرات الريف إلى المدينة، يأتي الدور السياسي ليجعل السكان سعداء، تحل مشكلاتهم وتلبية متطلباتهم .

قام الآباء المؤسسين في الولايات المتحدة بعمل إحتياطاتهم لتفادي المشاكل المتوقعة من المدن في إختيارهم للعاصمة _ وكانت الولايات تشك في بعضها، وتحذر من مناولة السلطة للحكومة الفيدرالية، خوفاً من أن وضع العاصمة في أي من الولايات يجعلها أكثر تأثيراً من الأخريات . لذلك كانت واشنطون مدينة صغيرة في مقاطعة فيدرالية وليست ولاية _ تجبر الشخص بمغادرتها من غير غرض، وأصبح ذلك تكتيكاً مألوفاً في العالم المعاصر، كما نلمسه في رتابة وبعد كل من كانبيرا وولينغتون واوتاوا .

صار الركون السياسي والتردد المتجدد سمات التغيير لدستور الولايات المتحدة بدون أي سبب واضح . هنالك تفضيل سياسي كبير ومفتوح فيما يتعلق بالتزامات الإتفاق لإرضاء ما يعرف محلياً بـ"الخنزير" _ ولكن لحم الخنزير لا يجد منه سكان واشنطن نصيباً . لا يوجد سيناتورات لمواطني مقاطعة كولومبيا، بينما فقط عضو غير منتخب في مجلس الممثلين _ وأحياناً لا ينزعج الحزب الجمهوري لوجود مرشح لوظيفة عمدة واشنطون . وفي أرض الواقع إن واشنطون مدينة ديموقراطية قوية؛ ومن غير المفيد أن يضيع الجمهوريين وقتهم ومالهم، ولا يهم من يديرها لأنها صغيرة جداً . (ومعظم الجمهوريين المحليين يعيشون في أطراف المدن في الولايات المحيطة، كمريلاند وفيرجينيا) .

بدأت حرب الإستقلال لأمريكا على مبدأ (لا ضريبة بدون تمثيل) . والآن تحديداً تحمل لوحة كل سيارة في واشنطون شعار (ضريبة بدون تمثيل) _ طالما أنها تستمر في تجاهل مبدأ مواطنيها، فإن عاصمتها أصبحت مثل روما، تضج بالمتجولين من الإستشاريين السياسيين الذين يجدون من الأهمية قربهم من مكان القرار السياسي . ويعيرهم الكونغرس إهتمام كبير، ويوفر لهم وجبة غداء مجانية _ نسبة لقدرتهم في التأثير والمساهمة في الحملات الإنتخابية،

وليس لأنهم سوف يحاصرون البرلمان أو يحرقون البيت الأبيض حتى يتم تخفيض ضرائبهم للنصف .

لم يفلح أي من الحكام الأوروبيين الثلاثة الغير محظوظين من جعل العاصمة في مكان قريب وهادئ _ بينما لم يصبح أي من المدن هادئة مثل مدينة روما، ومكتظة بالتشييد، تلعب سياسات العاصمة دوراً كبيراً في حكم الدولة .

أصبح التأثير قوياً لتأسيس مدينة لندن بحلول عام 1603م عندما قدم أول حكم جيمس الأول والد شارلس الأول؛ وأول شخص في صف حكام عائلة ستيورات التي أغضبت عائلة ثيودور الحاكمة . وصارت لندن توازن بين السياسة والتجارة أكثر مما قامت به روما، وكانت الحاجة لتكامل السياسة والتجارة مطلوباً، حيث شكلت معالم مدينة لندن الجغرافية . فكان المركز السياسي من ناحية الغرب، أما التجاري والترفيهي فكان من الناحية الشرقة للمدينة (تدخل المحاميون بين الإثنين وظلوا كذلك من حينها، ودخل صحفيون بصورة متوقعة في القرن العشرين _ وأيضاً طبقة من المتجولين الأقل أهمية ) . إرتبطت مدينتين ويستمينستر ولندن بخيط رفيع؛ وبعدها صار طريق عام أكثر مما هو طريق سريع، على جانبه الشمالي مساحات خضراء مفتوحة .

إحتوت مكتبات لندن في عام 1606م، على طبعات إنجليزية جديدة ومترجمة لمقالات طويلة وتختص بأسباب أهمية وعراقة المدن _ كتبها السياسي المخضرم جيوفاني بوتيرو . وفيها أوضح أن نمو المدينة سببه وجود و (إقامة الأمير بها)، جاذباً كل الذين يلهثون وراء الوظائف وقوائم الشرف . وكان نصف محق في حالة لندن _ لأن التجارة غالباً ما تعتمد على التاج، وهو المصطلح الذي يطلق على مركز الحكم، ولكن يحتاج التاج لدعم التجارة .

إستقر البرلمان بمدينة لندن في عهد إستيورات، بعد أن كان بعدد من المدن المختلفة سابقاً، وشدد الرقابة على قدرة التاج في رفع الضرائب . شعر جيمس الأول وشارلس الأول بضيق شديد حيال هذا الإلتزام، وكثيراً ما لجئوا للإستدانة من الممولين بالمدينة، والمرافق المالية

الأخرى . كانت الضرائب تسري على كل ما يحتاج له الناس _ حتى لو أن أسبابه غير مقبولة أو غير مرنة، كالملح والخمر والصابون، وحتى أوراق الكشتينة والنرد . وكان أفضل طريق مرغوب هو بيع تلك الأشياء عن طريق الذين يحملون رخصة ملكية فقط .

مدينتي جيتسر، التي تقع في شمال غرب إنجلترا، بها أغنية شعبية تعكس قوة وخطر من حمل منذ ذلك الإحتكار:

عاش طحاناً فرحاً ومسروراً على ضفة النهر

يغني ويعمل من الصباح إلى المساء دون كلل ولا فتر

وها هي مسؤولية أغنيته أصبحت تردد أبد الدهر

لا أكترث لأحد، ولا أحد يهمه أمري

نسبة لقوة وضخامة مملكة نبلاء شيستر _ قام الأمير شارلس، الذي يجلس على كرسي الحكم بخدمة حقوق لجمع المال بطرق متعددة مسنودة بالحكم . تضمنت الحق في طحن كل الحبوب المحلية في طاحونة النبلاء _ وبالتأكيد ن هذه الحزمة أحكمت قبضتها على أسعار الإقتصادات الصغيرة، التي يستطيع خلالها أن يتعاقد النبيل مع صاحب الطاحونة الذي يمكن أن يجد مالاً كثيراً من المزارعين . وكما جاء في العقيدة أن عدم شهرة الطحان بين زبائنه، ولا حتى الإهتمام بموضوعه أصبحت مسألة مفهومة . وكذلك كانت الحقيقة واضحة عندما إندلعت الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان في مدينة شيستر عام 1642م _ سيطرت طبقة الأرستقراطيين أصحاب المرافق على الجانب الملكي .

كانت مسألة جلب المال من الإحتكارات الخطرة جداً بمدينة لندن؛ التي ينقسم سكانها إلى أثرياء ومتدفقين عبر الهجرة . إرتفع عدد سكانها من خمسين ألفاً عام 1500م ليجعلها في الترتيب الخماس عشر للمدن الكبرى بأوروبا _ إلى ثلاثمئة وخمسين ألفاً نسمة في عام 1650من

الثانية بعد باريس _ يتزاحم سكانها في شوارع ضيقة ومتسخة وعبارة عن تكاثر من غير إهتمام .

في إحدى زياراته اللاأخلاقية في مدينة لندن _ قام جياكومو كازانوفا في عام 1746م بتدوين الآتي: (لا يستطيع رجل بملابس المحكمة أن يسير في شوارع لندن، دون التعرض للرشق بالطين من قبل جموع الناس...وتمتزج هذه النبل بإرتباك مع قذارة رائحة العامة. يتنازع الحمال الغلبان مع الملك دون أدنى إحترام) .

وقيل أنه من الخطأ الا تميز بين جلبة مقاهي لندن مع الاصوات الكبيرة للناس، ولكن عندما جاءت وسائل النقل والاتصالات، كانت بطيئة، كان صوت الاخيرة تبتلعه الاولى.

إنتشرت في هذا الجو العصبي، ذو الرائحة الكريهة _ الافكار الراديكالية، والغضب والاشاعات للمتشددين الكاثوليك وقال أحد مستشاري شارلس الأول أن شعبية البرلمان من بين سكان لندن وأن هذفهم وتمسكهم من أجل القائد فقط، إن تعبير تجمع لندن نفسه، ظهر في القرن السابع عشر، وإعتبره كثير من الملكيين، أنه تحقير وإستخفاف لإمكانية حمل المرض، وكما أنه يميل إلى العنف، (ربما كان لصابون أرخص هو الأنسب) .

بالنظر إلى حجمها والخوف من سلعتها، لا تتناسب لندن بأن تفتقر إلى معايير النظافة . ومن بين الجموع بلندن، نجد العاطلين وعمال هامشيين، وعمال متدربين _ فالآخرين من وجهة نظرهم أنهم يعملون كثيراً، ويجنون عائداً قليلاً، وهم المجموعة الغير مستقرة . وهنالك أيضاً مجموعات من التجار محصورين في تلك الصفوة التي تحيط بالملك _ والتي تتعدى دوافعهم السياسي مطلب لصابون أرخص.

كاتب المذكرات في القرن السابع عشر، صمويل بيبس، سمع الجموع في الشوارع، وتنادي وتطالب برلمان حر ومال حر، . ومن ناحية أخرى كتب: (قيل أنهم قاموا بذلك في الشوارع المفتوحة لمدينة ويستمستر، منادين "برلمان برلمان"؛ وأنا على يقين بأن المسألة حدثت بها عنف وخسائر .

حدث ما توقعته، ففي انتخابات ديسمبر عام 1642م، سيطر الراديكاليون المتشددون على مجلس عموم المدينة _ واستطاعت السلطات المحلية التغلب على ميليشيا المدينة . وقاموا الاثنين معاً مع مجلس العموم بتأسيس لجنة السلامة العامة، خلال الثورة الفرنسية، وكلاً منهما مكونات طابعها العنف) .

ازدادت حدة النزاع بين التاج والبرلمان في يناير عام 1642م _ وحاول شارلس القبض على خمسة أشخاص من البرلمان، ويكتشف أنهم قد حذروا وهربوا . وقامت ميليشيا المدينة بحمايتهم خلال عرضها في منتصف لندن _ فخاف شارلس، وخرج من العاصمة لمدة خمسة أيام لاحقه متراجعاً إلى نوتنجهام، ليعلن الحرب ويمضي السبع سنين القادمة محاولاً الرجوع من غير جدوى . وكانت عودته إلى القصر الملكي في وايرهول عام 1649م بخاطر مكسور أو أقل قوة: وكانت محاكمته تتم على مرأى العامة بأمر من قائد برلماني كان قد حاصره وهزمه . وبحماية البرلمان تمت إشانة سمعة الملك، وبذلك حققت لندن نصراً في الحرب الأهلية قبل بدايتها .

إن لم يكن للتجمع الباريسي دوراً محدداً في الثورة الفرنسية، على الأقل أنه ساعد في تصعيد ما بدأ من تدريب على إنشاء حكم دستوري يحل محل الحكم المطلق للويس الثالث؛ في حالة دموية حركت الشغب الذي انتهى بمخاض وميلاد الجمهورية .

بعد إمتلاكهم السلطة وكسرهم العنيف لسجن الباستيل في باريس في الرابع عشر من يوليو من عام تسع وثمانين وتسعمئة وألف، حيث (وجد ألبيرت سبعة سجناء فقط لإطلاق سراحهم) . قام الباريسيين بإنشاء حكومة مدينتهم _ جمعية باريس وتأسيس الحرس الوطني كقوة عسكرية . أما الحكومات الاولى للإنقلاب والمجلس الوطني والمجلس التشريعي، الذين أرادوا طريقة حكم محدودة إلى حد ما مثل النموذج الانجليزي، تخلصوا من رغباتهم . وتم منع لويس الثالث وعائلته من الهروب، ومن ثم حبسهم داخل قصر التوليريد في وسط باريس بمجموع بجموع من الناس يرتدون ما يسمى بالبنطلون القصير (SANS_CULOTTES)، والذين حرموا منه؛ أو كانوا لا يستطيعون الحصول عليه، والذي كان يرتديه أثرياء الفرنسيين .

قامت القيادة الراديكالية بقيادة جورجس دانتون _ رئيس قسم الادارة وقائد فرقة الحرس الوطني، وبمساعدة التجمع بإجبار المجلس التشريعي بحل نفسه في عام 1792م . وتم إنتخاب صيغة وطنية أعلنت جمهورية فرنسا، وحاكمت الملك . بدأت القواعد المتعددة للسلطة في باريس بعمليات كفاحية من أجل التحكم في الأمور؛ وقامت بقتل جماعي للملكيين والقسيسين وكل من له علاقة أو أبدى إعلان ضد الثورة، ولم يتوقفوا حتى عام 1795م، حيث جاء المعتدلون وأنهوا عهد الإرهاب .

خلف العنف في كل من باريس ولندن علامات ثانية في شكل المعمار للمدينتين . وبصورة واضحة، عندما فوض الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث البارون جورجس يوغين هوسمان إعادة تصميم مدينة باريسية بين الاعوام 1852م و1870م، ووضعت الشوارع الوعرة في الاعتبار لمناظرها الجميلة _ حيث عملياً أنها غير آمنة هولكن بها أغراض جمالية . وصمم عرض تلك الطرق ليناسب مرور المدرعات العسكرية والمدافع _ ويمكن إستخدامها للتدريبات المرتبطة بالرماية أو المعارك؛ وهي الأفضل لحسم أي إضراب مستقبلي .

هنالك شوارع بمقاطعة واشنطن، تحمل أسماء الولايات، وهي مصممة بأشكال ذات زوايا قائمة ومنحدرة لنظام الشوارع الأمريكي الرتيب والمألوف، (وعلي واحد منها وهو شارع بنسلفانيا _ يقع البيت الابيض) . أما في حالة واشنطن فيعكس الشوارع التأثير بالمعماريين الفرنسيين دون أي ضرورة عملية .

بعد تحطيم بنك إنجلترا في قلب مدينة لندن في مظاهرات غردون في يوليو عام 1780م _ أضيفت حوائط للمباني ذات الطابقين والتي بدون نوافذ (جنباً إلى جنب بالقرب من السجون في نيوقيت وفليت) . وأعقبت تلك المظاهرات _ مظاهرات ضد الكاثوليك (أيبدوا ذلك مألوفاً؟)، والتي خرج بها أكثر من أربعين ألف شخص عن السيطرة . وتمت حراسة بعد ذلك في المساء بحراس مسلحين بالبنادق؛ وانتهت الحراسة في عام 1973م ، وهي الفترة التي زال فيها خطر وتهديد التجمع والعنف ضد البابا .

لم تقلل في السيطرة على العاصمة بروسيا شأن سلسلة حكام روما نوف فقط، وإنما بطريقة دراماتيكية تكشف عن ضيق أفق الحركة السياسية المركزة على العاصمة والمسؤولة عن مئة وسبعون مليون شخص يغطون مساحة 6.5 مليون ميل مربع .

كان الحكم الديكتاتوري ضعيفاً بروسيا _ ويمكن أن يعرض أي من مراكز القوى للتغيير، مثل البرلمان الروسي الغير فعال (الدوما)، الذي له سلطة هشة على مساحة كبيرة بها سكان متفرقين . تنازل الحاكم عن السلطة بعد خذلانه من الفشل العسكري في فبراير عام 1917م، في الواجهة الشرقية للحرب العالمية الاولى بعد المناصفات الكبيرة للثوار في بيتروقراد (سابقاً ولاية نتريسبيرج، وتروأس الاسم لعامين سابقين لإرضاء عاطفة الكراهية ضد الألمان) . وبدأت المعارضة بعمال صناعيين، وتطورت إلى مخالفة الآلاف من الجنود للأوامر وكان ذلك تظاهر معروف وليس ثورة شيوعية . وقاد فلادمير لينين المجموعة البلشفية السياسية؛ وكان معه ليون تروتسكي سيطرت على الدولة وأصبحت الحزب الشيوعي للإتحاد السوفيتي بعد ثمانية أشهر . وكانت مثار دهشة، لأن أغلب أعضائها لم يكونوا بروسيا في ذلك الوقت مظهرة عرض هزلي باهت لمجموعة من الثوار يسرعون إلى ديارهم للحاق بالثورة .

كان النصر الحقيقي للبلشفية يرجع ليسيطرتهم المتزايدة على منظمة عمال بلغراد على مدار شهور . وكانوا يراقبون منافسيهم ويحرجون ويرهقون المؤيدين المحليين محاولين إقامة حكومة مؤقتة لروسيا بعد ثورة فبراير . وكانت الثورة البلشفية تتواصل رغم عدم إقتناعها بوضعها . وتركيزها بسبب الحرب التي كانت مستمرة (معارضة أكتوبر كما كان إسمها الاول) حيث كانت عبارة عن قوات خاصة تقاتل حكومة متعثرة وليست ساحة معركة ضد أوامر سامية لحكومة فعلية.

لم يقابل ضرب قصر الشتاء . وهو المكان المركزي للحكومة بأي مقاومة، ومات الكثير من الأشخاص بغير قصد في صناعة فيلم مخرجه سيرجي ايزينشتاين في عرضه أكثر من موته الفعلي في المعركة خلال الهدف نفسه .

لو أن المكونات السياسية مجتمعة قادت ثورة أكتوبر في عام ١٩٩٧م وحددت الشكل السياسي للأمة لسيطرة الثوار الاجتماعيين على حكام روسيا السابقين وكان لحزب الثوار الريفي أولويات إعطاء الفلاحين حق امتلاك أراضيهم وعملياً بالحضر والريف هنالك من المساندين للثوار الاجتماعيين، ومنهم من يرغبون في الاستقرار منتشرين في أرجاء روسيا الواسعة . ووجد البلشفيون سهولة مدهشة أن يلفظ المجلس المنتخب، الذي يتولى السلطة وبه أغلبية من الثوار الاجتماعيين الذين يقومون بالسيطرة .

وعت الحكومات المتقلبة الدرس المناسب في الانتباه للذين يحيطون بهم– وكثير ما تكون النتيجة هي امتلاء العاصمة بالسكان بما يفوق قدرتها الاقتصادية الموضوعية، والامثلة في هذا الصدد كثيرة وبارزة وكما رأينا في الباب الاول كيف أن الارجنتين اتبعت سياسات غير مناسبة وطرق افسدت بها تنميتها – وطبقة ملاك الارض التي لا يعيشون فيها – والافكار المتطبعة للشركات الصناعية التي لا يمكن أن تعيش عند غرسها في ميادين المنافسة العالمية، ومثل إنجلترا في عهد استيوارت .

تغير إتجاه إقتصاد الأرجنتين بإنحياز وفساد الحكومة التي أحاطته بلوائح وإحتكارات وتراخيص . وليس من المدهش كلياً أن أكثر من 35% من الأرجنتين؛ وليس 35% من سكان الحضر وهو معدل الديموقراطيات المتزعزعة، ولكن 35% من مجموع كل السكان يعيشون في بيونس إيرز .

إن هذا النوع كان شائعاً عبر أمريكا اللاتينية _ حيث كانت مدينة المكسيك عبارة عن عاصمة صغيرة لأقل من ثلاثة مليون نسمة في عام 1950م؛ والتي يعتبر توسعها المتعثر، أوجد واحد من أكبر المناطق العشوائية العالمية المعاصرة . والآن بها عدد سكان يقترب من 22 مليون نسمة . حيث كان النشاط المعهود للمدينة قبل الحرب، يشتمل على مجموعة من المهاجرين الريفيين يتوافدون على المناطق ويسكنونها بطريقة غير قانونية في أطراف المدن _ ويختارون زعيماً لهم، والذي يحاجج ضد الحزب الثوري الدستوري الحاكم (PRI) . وتقوم الحكومة بسرعة منحهم أحقية إمتلاك الأرض، وتمدهم ببعض خدمات البنى التحتية البسيطة؛ من أجل ذلك

يصطفون حول الحزب الثوري الدستوري . وبذلك ينطوي باب من أبواب العاصمة الممتلئة والملوثة بالزحام والناس . وحتى المسولين بمدينة المكسيك يقضون جل أوقاتهم بالمدينة لكي يجدوا الإهتمام السياسي، متأثرين بالحكومة المركزية .

نجحت بعض المدن الآسيوية وتحديداً تلك التي لسلطاتها القدرة والرغبة في التخطيط _ وحيث المهاجرين الريفيين لهم وظائف يذهبون إليها . صحيح أن مقاطعة بانكوك الحاضرة، من المستحيل أن تزدحم، وهي تضم تسعة مليون شخص؛ بينما ثاني أكبر مدينة بتايلاند وهي مدينة شيانغ ماي الهادئة، والتي يتعلق بها المسافرون، بها مائة وخمسون ألف نسمة فقط . وتأتي المدن ذات النمو الكثيف والسريع بآسيا في سلسلة المدن المتراصة القادمة .

توجد بالصين سياسة مريحة لتشجيع المدن الصغيرة في النمو، وإزالة الضغط السكاني في الحاضرات السواحيلية، مما ينتج عن زيادة في عدد المدن أكثر من إتساع وتكبير حجم المدن الموجودة . وبإحصاءات رسمية إرتفع عدد المدن المصممة من 193 إلى 645 مدينة منذ عام 1978م، وتراجع نصيب السكان من العيش في المستوطنات الضخمة مثل شنقهاي وبكين وشنزن .

للصين تجربة في جعل المدن الجديدة أكثر أماناً؛ وكثير من المدن بها نقص في حصص المياه كما في مانيلا وشنغهاي وبانكوك تدهورت خدماتها بصورة حادة في غضون العهود القليلة الماضية، وتقوم الصين بتجربة مبهرة ببناء مدينة دانغتون الصديقة للبيئة في جزيرة خارج شنغهاي؛ والتي صممت لكي تكون آمنة بيئياً واجتماعياً، ومايسمى (بالأثر البيئي) هو مقياس للتربة والماء تزود به مدن الدول الغنية كل منها الاخرى، ففي شنغهاي هو٨، وباقي الدول الغنية هو 5 هيكتارات، وفي مدينة هيستون المعتمدة على إنتشار السيارات هو١٤ – أما في دانغتون أقل من 3 وبالرغم أن عملية البناء تسير وفق جدول معين، ينبغى علينا الإنتظار لنرى دليلها لتلك النسخة من البناء .

هنالك تحدي يجب علي كل المدن وليست مدن الدول النامية الصاعدة في العالم – التعامل معه – رأينا حتى الآن كيف أن المدن تكونت بفعل الحاجة الصناعية للقوى العاملة، ومراكز التوزيع والتجارة، وأصبح الانتاج في الدول الغنية رأس مال قوي كون جزءاً من الاقتصاد وإنحصر الطلب على العمالة الكبيرة المتكدسة للصناعة – ومدن أشباح هياكل الطائرات والسيارات بمتشيغان خير دليل على أن المدن التي فقدت الاصل من بقائها ليس لها سبب في الوجود.

بظهور الخدمات الاقتصادية، وبصورة محددة في الاتصالات وموخراً على الإنترنت – هل كان له أثر حقيقي في إختفاء المدن التقليديه؟ وهل تمكن التمدن من التراجع؟ كانت هنالك إرهاصات صادقة تدل على تراجع التمدن في سبعينيات القرن العشرين . فكثير من المدن ومن ضمنها مقاطعة نيويورك التي بدت على حافة الانهيار، وشارفت على الافلاس نسبة لإرتفاع معدل الجريمة ومغادرة الاعمال لها، وكان الرفض المبدئي لجيرارد فورد الذي أصبح رئيساً فيما بعد للتكفل بمال فيدرالي لحل المشكلة من العناوين البارزة للصحف، حيث جاء في نيويورك بوست(فورد إلى المدينة: يسقط ميتاً) .

تصير كل مدينة هشة عندما يكون بها تصنيع ضخم أو وسائل نقل، وخصوصاً لو كانت بها الاثنان معاً، فمثلا ميناء ليفربول الذي يقع في الناحية الشمالية الغربية لأنجلترا، والذي تقوم عليه أكبر تجارة عبر المحيط ببريطانيا، كان من أغنى مدن الدولة في القرن التاسع عشر. ففي قمة أهميته يمثل مركزاً عالمياً لتجارة الملح والقطن . ويأوي تبادلاً تجارياً (إن لم يكن طبيعياً) تجارة الرقيق . أدى تدهور ميناء ليفربول والتراجع الانتاجي البريطاني إلى تناقص عدد سكانها إلى النصف؛ فمن 867,000 الف نسمة في عام 1937م الي 442,000 الف نسمة في عام 2001م .

ظل الطلب لوسائل النقل في تراجع لمدة قرن من الزمان وبالنسبة لأكبر عشرين مدينة في امريكا عام 1900م؛ كانت سبعة منها موانئ حيث يلتقي النهر بالمحيط وهي (بوسطن – بروفيدانس – نيويورك– نيو جيرسي – نيووارك – بالتيمور – سانفرانسيسكو) .

وخمسه منها موانئ حيث تلتقي الانهار بالبحيرات العظمى وهي:(شيكاغو – ميلواكي – ديترويت – كليفلاند – بافالو) وثلاثة منها تقع على نهر الميسيسيبي وهي:(مينيبوليس – سينت لويس – نيواورليانز) وثلاثة على نهر اوهايو وهي:(لويسفيل – سينسيناتي – وبيتسبيرج) واثنان منها على أنهار الساحل الشرقي بالقرب من المحيط وهي:(فيلاديفيا – واشنطون) . ولكن إنخفضت تكلفة النقل للمنتجين بإحصائيات حقيقية بنسبة٩٠% في القرن العشرين، مزيلة ضرورة كل منطقة لوجود مركز إنتاج وتوزيع بها .

إن وجود ماكينات الاحتراق الداخلي الرخيصة يجعل من الناس التنقل وشحن بضائعهم لمسافات طويلة بتكلفه أقل – حيث دفعت وسائل النقل الرخيصة الامريكان بعيداً عن كليفلاند وديترويت إلى الاماكن الرخيصة والجو الدافئ وأشعة الشمس مثل فيونيكس واريزونا والتى نمت بمعدل الثلث الى 1.5 مليون نسمة في الخمسة عشر سنة الماضية . ومعظم العشرين مدينة المذكورة أعلاه من الشائع تدهورها الصناعي – وفقط ستة منها تمثل الاعلى اليوم .

وفيما يتعلق بالستة عشر مدينة كبرى بأمريكا عام 1950م، منها فقط أربعة بها عدد كبير من السكان أكثر من ذي قبل بالرغم من أن عدد السكان القومي قد تضاعف .

على ظاهر ثورة تقنية المعلومات (IT)، للقرن الواحد والعشرين والارقام وجب عليها وربما ان تقوم بتكملة المهمة حيث يمكن العمل بعد أن يزيل الحاجة لنقل الاشخاص لأماكن عملهم؛ أو حتى وجود طبيعي لأماكن عمل على الإطلاق . وربما عدة مدن بدأ عليها الاحتضار في سبعينيات القرن العشرين – نيويورك وشيكاغو ولندن كانت بها أنشطة تجارية وتقدم ملحوظ .

وبطريقة مفهومة ما قامت به المدن الثلاثة هو إعادة خلق الروح المعنوية التي ألهمت مدن الدول في أوائل وأواسط اوروبا المعاصرة . إن العولمة وخصوصا ترقيم المعلومات يعني أن المدن مدينة أكثر لقدراتها لراحة الأسواق العالمية أكثر من ارتباطاتها بالسوق المحلي .

يبدو أن الاتصال المباشر مع العملاء في كثير من الصناعات ذات التخصصات العالية مثل الإعلان؛ ضرورياً في نظر الصفوة من المجتمع . وأكثر الصناعات المرقمة

والمحوسبة مثل: الإعلان والبرمجيات والخدمات المالية، والتي تجتمع في المدن الغالية المتعدد الاعراق والاديان مثل وادي السيليكون وول ستريت .

توجد في مركز مدينة لندن صناعة متخصصة في أعمال ما قبل الانتاج لشركات الافلام سوهو (soho) واصلت في جمع العملاء والزبائن . وإنك ان لم تشرب مع المنتجين الآخرين في حانات سوهو، سوف تفقد الاستمتاع بأفضل الاعمال . تعتبر مدينة نيويورك الوحيدة من بين الستة عشر مدينة الكبرى في الناحية الشمالية الشرقية أو الغربية الوسطى – مجموع سكانها أكبر من عدد سكانها في الخمسين سنة الماضية .

لا يوجد سبب معين على الاطلاق لأي احد، بإستثناء الحكوميين أن يعيش في مدريد؛ لأن المدينه تقع معزولة وفي منطقة مرتفعة ومما يثير الدهشه أنها أعلى عاصمة في اوروبا وبها حرارة قاسية في الصيف وبرد شديد في الشتاء . ومرة أخرى وبإحتفاظها بمجموعة مهمة من الخدمات المالية ورئاسات الادارات تغلبت المدينة على تحدياتها . لتأتي في الترتيب الثاني لصفوف المدن، مثل برشلونة بطريقة مختلفة وجذابة .

حل التكدس محل أماكن الموارد الطبيعية والتجارة المحسوسة كسبب أساسي للعيش بالمدن . وبصوره عامة، تمثل كل الصناعات الجديدة أماكن تجمع سكان الحضر أكثر من انتشارهم بطريقة منتظمة وهادئة حولها . ففي غضون عقدين من الزمان إرتفع عدد سكان مدينة حيدر أباد الهندية الشمالية من واحد مليون الى سبعة مليون شخص – عندما ظهرت صناعة تقنية المعلومات في الفراغ الجوي . ويذهب المهاجرين الذين يعملون في الصناعات الناشئة . للمكان الذي يسكن به من سبقهم من المهاجرين مثبتين وضعهم بطريقة تفاعلية . ويمكن أن يحدث تجمع للبشر في أي مكان مما يجعل المنافسة بين المدن مثيراً والاختلاف بين النجاحات والفشل صار واضحاً، وكان لمدينة شيكاغو إحتكار طبيعي محلي عندما كانت الميناء الوحيد والكبير على الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة ميتشيغان؛ وعندما تراجعت أهمية التجارة المحسوسة، أصبحت ككثير من المدن مثل: ديترويت وكلايفلاند وميلواكي التي يمكن أن تصبح مركزاً تجارياً ومالياً للوسط الغربي . ليس فقط على شيكاغو أن تتعايش مع المنافسة بل

أن تتغلب عليها، وخصوصاً توسيع سلع أعمالها التجارية والاحتفاظ بها في وجه المنافسة لشبيهتها نيويورك .

إن التكنولوجيا المعاصرة كثيراً ما تعني أن الفائز ينال الكل، وذلك فيما يتعلق بالشركات والمنتجات مثل شركة (ميكروسوفت ونيدوز) حيث يتخصص عدد محدود من المدن في صناعة محددة . تشترك طوكيو وهونج كونج وسنغافورا في التجارة العالمية للسوق الآسيوية بعزيمة وإصرار في وجه المنافسة . ومن التأويلات الكثيرة أن شنغهاي مثلا، كانت ستتولى دور هونج كونج كميناء للصين . وذلك عندما عادت المقاطعة للصينين في عام 1997م .

وعرضت سنغافورا 40 فيزا للمحترفين من هونج كونج في ذلك العام . ولكن لم تتحصل على العددية المطلوبة على الاطلاق – لأنهم آثروا البقاء في هونج كونج حيث تتغلب الخبرة والمعرفة .

من الصعب أن تتغير المدينة عندما تحكم سيطرتها على النمو والصناعة ذات المهارة العالية، كالخدمات المالية العالمية . وفي أغلب الاحيان يذهب العمال المهرة إلى المدن ذات الغالبية المسيطرة من المحترفين مثلهم . فنجد أماكن كمدينة لندن ونيويورك مثل مدن العصور الوسطى، منفصلة جزئياً من الاقتصادات التي من حولهما؛ وهما أكثر عالمية وليبرالية، وبهما أعراق مختلطة عن الاعراق الاجتماعية وتقاليد الجنس . لك أن تتخيل أي من العمد الامريكيين غير عمدة مدينة نيويورك؛ رودي جولياني الذي قام بالعيش مع زوج من المخنثين لمدة من الزمن، ويقود صديقة ليست بزوجته إلى داخل سكن العمدة بالمدينة .

أن تصبح مجموعة ضخمة جداً، شيء يرغبه الناس بشدة، ولكن هنالك أمثلة قليلة لواحدة من النماذج، نهضت بنجاح بطريقة مريحة وبعيدة من الاحتكاك – وهي تجربة ممتعة (التي جعلت سنغافورا من بين دول أخرى، تنظر بعين مشدوهة ومتشوقة) كان ما تم في دبي، أنها صبت ملايين الدولارات من أموال نفط الامارات في المدينة، لكي تكون مجموعات مثل الابحاث التكنولوجية الحيوية . ولكن مثل تلك المحاولات تتطلب ضخ أموال كبيرة، ودائماً ما

تخلق مخاوف وأخطار المتغيرات والحظوظ، ودخلت دبي في مشكلة بعد ما تضاعفت ديون الامارات بصورة خارج سيطرتها .

هنالك سبب آخر يتعلق بأهمية المدن لتكون أماكن للسكن ويحب الناس الخروج واللعب مع من يشابهونهم، وأن المسألة ليست مالية بحتة وإنما أسواق واعدة كتلك التي بلندن ونيويورك التي تعتبر أكثر إكتمالاً وسيولة من أسواق المحافظات . والمدن ليست أماكن لإنتاج الخدمات ولكنها أفضل الاماكن لإستهلاكها . وفي الاقتصادات الغنية لا يتم إنفاق هامش دخل المستهلكين . بصورة أساسية في أشياء مثل الحواسيب والتلفزيونات . وحتى الملابس التي يمكن أن تنزل أسعارها في أي حالة – ولكن ينفقونها على الخدمات الشخصية: كالأكل خارج المنزل والصالات الرياضية وتجميل الوجه والأفلام والمسارح . وهذا يعطى المدن ميزة طبيعية . لأنه كلما كان عدد سكانها كبير، كلما قدمت مثل تلك الخدمات .

أصبح طلب المستهلك أكثر تخصيصاً وحصراً، وهذه حقيقة لأن المستهلكين لا يريدون مشاهدة الافلام التي يشاهدها أي أحد في مدن المحافظات، ولكن يريدون مشاهدتها في مسارح وصالات عالميه – ولا لأن يتناولوا أطعمتهم في سلسلة المطاعم المعروفة – بل من المطابخ العالمية . قام أكثر وأطول مستودعات البضائع المستوردة وهو سيلفريتشيس (Selfridges) بطرح حملة إعلان قبل سنوات قليلة ماضية، – صمم ليظهر ويثير غضب الزائرين من المحافظات، وكان كالآتي: (من الأفضل العيش بلندن)، وكان الاعلان مثبت على مجموعة صور للريف البائس – وكانت شاشة الرمز الوصفي لمدينة نيويورك في سبعينيات القرن العشرين هو(سائق التاكسي) والتي تعرض المدينة بشكل العنف والكآبة الغير الاخلاقية، أما في العقود الحديثة والاخيرة، فكانت الايقونة (الجنس والمدينة) فيعرضها كمدينة آمنة وساحة مفتوحة للفتيان والفتيات .

ارتفعت نسبة تكلفة السكن للأجور الحقيقية بصورة حادة في العقود الحالية في أمريكا . واتضح أن الناس يختارون أن يعيشوا في المدن لأسباب أخرى غير التوظيف . فمثلاً نيويورك ولندن وحتى واشنطن لم تتصدر قائمة أي أحد لحاضرات الضوضاء – حيث استطاعت أن تعيد

تأهيل أماكن للترفيه بالقرب من مركز المدينة . وبلندن مثلاً: ستكون الضفة الشمالية لنهر الدامس أكثر حيوية ونشاط إذا لم تكن بها أماكن قمامة وقذارة من خلفها. وعندما تظاهر البرلمان ضد الملك؛ جددت حيويتها بافتتاح معرض (tate)، للفن المعاصر، والنجاح الكبير لسوق بورو (BOROUGH)، والآن هو أحد أسواق الاطعمة المواكبة بلندن، وإذا عدنا لفترة السبعينيات من القرن العشرين كان مربع صحيفة نيويورك تايمز عبارة عن أرض ليس بها سكان، وبها جرائم ولكن ظلت تعيد نشاطها منذ تلك الفترة حتى لو كان سكان تلك المدن ثابتين، كما هم كذلك أحيانًا، فليس من الضرورة أن يعكس فشلهم؛ لأن العيش بالمدينة بصورة متزايدة، يعني ان العذاب يعيشون بمفردهم، والتغيير المستمر لسكان جدد يحلون مكان الذين أرهقهم العيش بالمدينة، أو الذين يتوالدون ويتوجهون للسكن في الأطراف .

ستكون هنالك كثير من المدن لو استمرت التوجيهات الحالية، ولكن أيضاً من المؤكد أن يكون الاختلاف أكبر بين الفائزين والخاسرين – وستزداد الهوة بين المدن الناجحة والمدن الخاسرة بصورة أوضح؛ لأن العولمة تعرض الشركات لمنافسة قوية، بزيادة عائدات الاعمال الناجحة وتقليصها للفاشلة منها .

إن كل هذا الحديث ليس فقط للمدن التي تستمر في لعب دور محوري لرفاهية الانسان مستقبلاً، ولكن لأهمية الطريقة التي تسير بها تلك المدن، ويصبح حجم البيض الذهبي أكبر، بينما يتعكر مزاج الاوزة، فإن المدن ذات الصناعات الواحدة معرضة للتدهور في تلك الصناعة .

انعكست الخسارة المادية على صناعة الخدمات المالية من جراء الأزمة المالية التي انتشرت بسرعة شديدة في عام 2008م، فإن مدن مثل لندن ونيويورك، حيث تجتمع البنوك – من المحتمل أن تعمل بشدة لكي تستمر في البقاء – وإن الاهتمام بالتلوث البيئي والضرائب العالية ووسائل النقل الفقيرة، سوف تتراجع جنباً إلى جنب مع دفع الحوافز .

ويمكن للتجمعات أن تتفرق مثلما اجتمعت؛ فمدن مثل: فلورنسيا والبندقية وانتيوارب وبروغيس ، وحتى أمستردام كلها كانت موانئ حكومية ذات أهمية عالمية كبيرة على مدار الألفية الماضية، وهي الآن أماكن شبه منسية .

من الصعب جدا بناء مدينة ناجحة والأصعب منها بناء مدينة على مستوى العالم . ولكن الحكومات ذات التوجه الخاطئ أو الغير مقتدرة والتي تهورت وحطمت كثير من هذه المدن في الماضي؛ ولم تترك مجالاً لمسألتي الرضاء والقدر بالوقوف في التمدن .

أعتقد أن مسألة تولي العاصمة الأمريكية لحقوق الآخرين تمت بصورة كبيرة جداً . وبتقاليد الديموقراطية الراسخة، والتي غاصت في أعماق مجتمع الولايات المتحدة لدرجة أننا نخاف أن تمتد مكاسبها إلى الجميع . وربما حان الوقت بعد كل هذه السنين أن نأخذ نفساً طويلاً، ونغتنم الفرصة لنمنح صوتنا لمقاطعة واشنطن – وهذا كل ما في الامر .

**الكلمات والمصطلحات :**

| | |
|---|---|
| vilified | يسخر |
| Intrinsically | فعليا |
| Hindsight | افتراض أو استباق الحدث |

| | |
|---|---|
| Apex | نظام تخفيض في بيع التذاكر |
| Pivot | محور |
| Antebellum | فترة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية |
| Denunciations | انتقادات لاذعة |
| Solipsistic | وجود ذاتي |
| Fragmented markets | أسواق القطاعي |
| Linseed | زيت يستعمل للأخشاب |
| Dysfunctional | كثير الأعطال |
| Back water | مكان منسي |
| Saracens and moors | حضارات مسلمي شمال أفريقيا |
| Ludicrous | عبيط |
| Tsars | لقب حاكم روسي |
| Catch-up cities | المدن الصاعدة |
| Hulk | جسم السفينة أو الطائرة |
| Crime soaring | ارتفاع معدلات الجريمة |
| Sexual mores | أعراف وتقاليد الجنس |
| dystopia | كآبة أو قمة الاستياء |